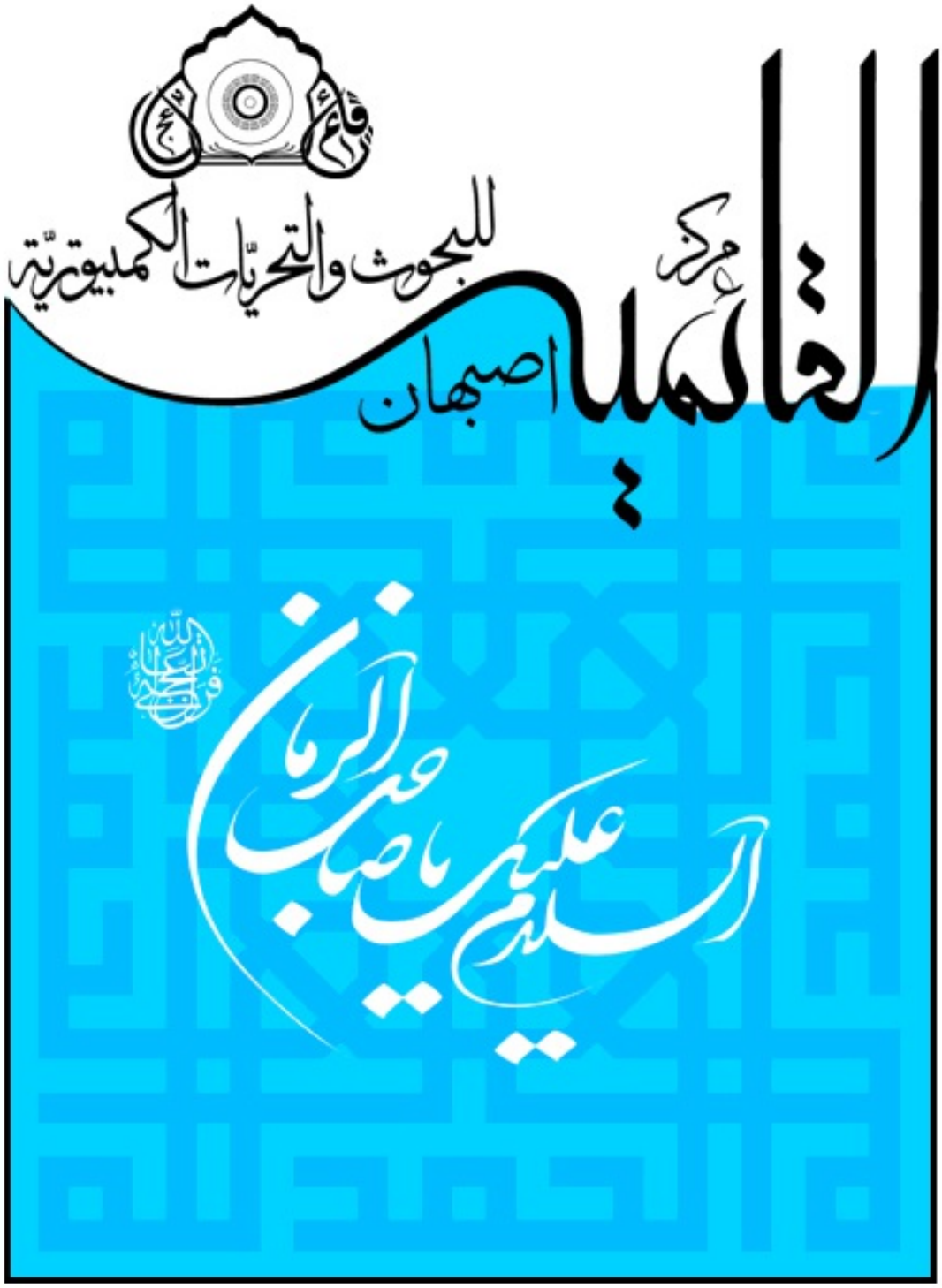

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

الامام الحسن عليه السلام
الكوثر المهدور

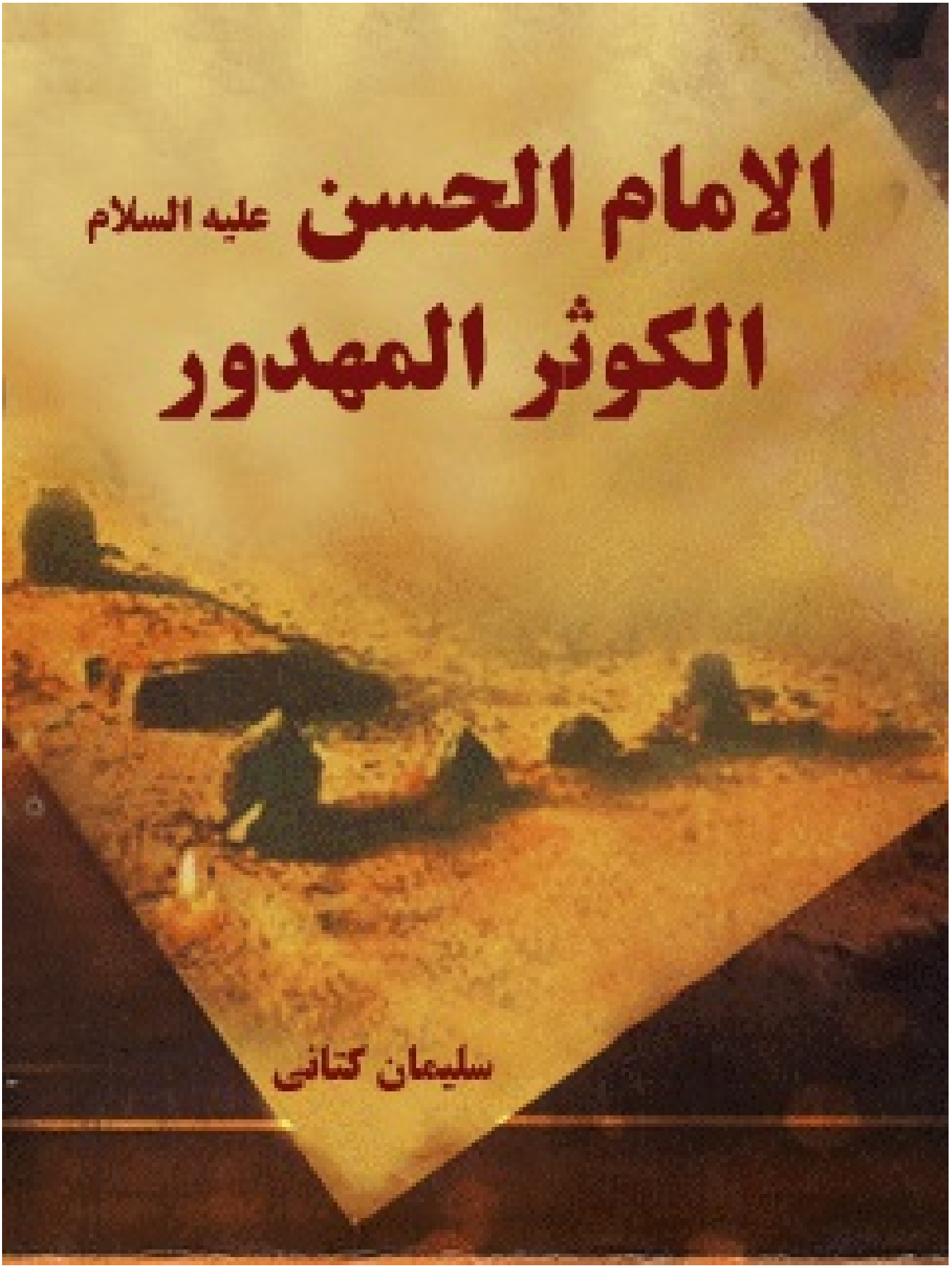

سليمان كتاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الامام الحسن الكوثر المهدور

كاتب:

سليمان كتانى

نشرت فى الطباعة:

دارالهادى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الامام الحسن علیه السلام الکوثر المهدور ----- ۷
اشارة ----- ۷
الی اللجنة الکریمة ----- ۷
فاتحة ----- ۷
المقدمة ----- ۸
اطر و ملامح ----- ۱۰
حروف مبعثرة ----- ۱۱
مع البدایة ----- ۱۵
المهمة ----- ۱۷
رب المهمة ----- ۱۸
القیمومة ----- ۲۰
القصد من القیمومة ----- ۲۱
این هی المهمة ----- ۲۲
الجلوة ----- ۲۳
المراحل ----- ۲۴
وصلة البحث ----- ۲۴
السقیفة ----- ۲۵
ابوبکر الصدیق ----- ۲۸
فاطمة الزهراء ----- ۳۰
عمر بن الخطاب ----- ۳۲
نبذة فی الواقع ----- ۳۴
عثمان بن عفان ----- ۳۷

غمزة ----- ۴۰
الامام علی - المنحی ----- ۴۱
الامام علی - الخلیفة ----- ۴۴
الحسن ----- ۴۸
معاویة بن ابی سفیان ----- ۵۲
ای کرسی هو الحکم ----- ۵۷
المواجهة ----- ۵۷
جعبة الحکم ----- ۶۲
المبایعات ----- ۶۵
ای کرسی هو الحکم ----- ۶۹
القرار ----- ۷۷
الخاتمة ----- ۸۵
حروف أخیرة ----- ۸۵
خاتمة ----- ۸۷
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۸۹

الامام الحسن عليه السلام الكوثر المهدور

اشارة

عنوان كتاب:الامام الحسن الكوثر المهدور : دراسه ادبيه تظهيريه الكتاب الذى احزر الجايزه الاولى فى مسابقه التاليف عن الامام الحسن عليه السلام/ سليمان كتانى

وضعيت نشر و پخش و غيره :بيروت: دارالهادى، ۱۴۲۸ق = ۱۳۸۵

مشخصات ظاهرى:۱۹۱ ص

زبان متن نوشتارى يا گفتارى و مانند آن:عربى

محل و شماره بازيابى:كتابخانه مجلس شوراى اسلامى۱۲۸۳۶۸۵

شناسگر ركورد:۶۰۹۹۷۰

الى اللجنة الكريمة

شكرا للجنة الكريمة – لقد أفسحت مجالا فى الاطلاع على سيرة رجل كريم الأرومة، و زكى النفس، و عميق الغوص فى قضايا مجتمع الانسان

كم هى الآن – مجتمعاتنا العربية – بحاجة الى نهجه فى التطبيق، لكان السلام العاقل هو الذى يجمعها الى تحقيق مثالى، نظيف العقل و الروح و الكف، و يبنيها بناء التوحيد العظيم الذى حققته أرقى مجتمعات الأرض

أصبحت أؤمن أننا الآن بحاجة الى الحسن – الى الامام الحسن – الى الرجل العظيم الزكى الذى هو الحسن

المؤلف سليمان كتانى

[صفحه ۷]

فاتحة

أيها الامام المجتبى

ضاء اسمك يا الحسن

و الاسم لك

جادت به عليك عين المصطفى

و قلب له كريم النفخ و الشفة و اللسان.

و عقل بعيد الغوص و المدى و المجال

و خيال مدغوم الاسراء بالمعراج

تقودنى الآن الى عتبة لك خطوات تهدج الريح بها، فى حنين، كأنه شفع من وتر دون أن يتعثر بها نجم خفقت به الليالى الأفكة فقطعت عنه موصول الشعاع

انها خطواتى الصغيرة الصغيرة،

تنقلت بى الى العتبات الكبيرة الكبيرة،

وقفت بها - فى فترات من قبل - على عتبات ثلاث، فاذا خلف كل واحدة منها محراب له عميق، و له عطر، و له سقف مد فوق السماوات.

لقد كانت العتبة الأولى مؤدية الى رحاب أبيك، و هى ملفوقة بالرضوان.

و كانت الثانية مبلولة بالشذا النهلان بالطهر، و هى منقوشة لأمك الصديقة

[صفحه ۸]

تجمعها مريم بنت عمران زنانير مبتولة عن المثيل.

و كانت الثالثة لجدك ابن‌عبدالله، ذلك الذى وصل الشطان بميازيب السحب و أغدق عليها همرات السلام.

هى ذاتها هذه الخطوات، أترانى أدرك، و أنا أهمزها الآن اليك - كم أنت السيد الكريم، و كم أنت الوارث العظيم، و كم هى الأجيال لا تزال حتى الآن بحاجة اليك:، ترتق لها المفاصل، و تفك عن أوراكها عقد المعاضل، بنهج كأنه ممزوج من بلاغة أبيك فى الادراك، و عجينة أمك فى تحمل القذى، و مرامى جدك الى عجن الانسان و خلقه من جديد فى علمية التسليم و التوحيد.

اترانى أصيب اذ أشبهك بنهر الكوثر؟ أم أنك لا تزال ترفل فى ظلال هى منه أسخى و أوفر؟

و لكن الذين كانوا مدعوين الى تناول المنهل، و بدلا من أن يتذوقوه، هدروه فيا لظى الحلق اليك، أيها الكوثر المهدور.

[صفحه ۹]

المقدمة

اننى مدعو للدخول الطيك أيها السيد الكريم، و ها انى أهفو الى قلمى حتى يطيب فيقرع الباب عليك. عفو المسافات يا سيدى فانها لا- تزال هى التى تهفو اليك هفو الريح فى الفضاء - و بابك لم يقفل حتى يقرع - فهو هو ذاته فى صدارة المحراب، لأنك أنت المسافة التى ليست لأن يقطع اليها، بل لأن توصل بها المسافات.

هكذا انوصلت بك المواعيد، و انفتلت بك عهدا فى وصلة الصباح بالصباح، و دمج الضياء بالضياء، و فبدوت كأنك الوصال المبنى لاستلام الساحات دون أن توهى - هى - بفك الارتباط.

أتكون أنت منتدبا؟ أم أنك انبثاق من مهجة الرسالة التى هى زرع الحق فى الانسان، و رفعه الى مدار الكون، و السير به الى سناء يجعله انسانا سويا.

ألم تكن هى رسالة جدك، لقد أنزلت اليه فى غار حراء من خلواته العميقة الموصولة الارجاء، من استغراقاته المديدة المندمجة الذات التى هى مصدر المصادر فى معانقة الحق، من جهاد العمر كله من أجل التبليغ، من أجل جعل الاشارة تحيا فى المشار اليه، من أجل جعل الانسان ينمو بالحق المزروع فيه والذى هو - وحده - نصيبه فى الوجود، من أجل جعل الله مثلا فى

[صفحه ۱۰]

النفوس الشريفة المبنية للرحاب، من أجل، جعل الانسان محررا من أى اخطبوط يخبىء أصابعه فى عثانين الأصنام، من أجل امتداد العمر بالانسان حتى لا يبقى:ما أن يولد فى الليل حتى تتناوله الغفوة قبل تباشير الصباح.

لقد نجح الجد العظيم فى بعث الرسالة، و فى حفرها المتين فى قرآن، و فى نقلها البليغ الى الانسان، فى تسجيلها على لوحة الزمان. و ها هى الأجيال لا تزال موصولة به كما لا يزال هو موصولا بالمصدر الذى به تم الاتصال.

و لكن الرسالة التى بلغ بها الجهد الى حقيقة الزرع، و حقيقة العلوق، و من ثم الى حقيقة الانطلاق، انما هى وصلة فى الحياة، و لا بد لها من تركيز يدفع بها من ثقل الى ثقل، كما هى الحياة بالذات، لاتنى تتلقط بكل شوق يتنقل بها من وصال الى وصال.

و كنت أنت المجتبى - قبل أن تبصر النور كنت المصطفى - انه الشوق فى جدك تتناوله الغيرة على مجهود يلزمه الدفع الطويل حتى يبقى مستمرا، يلزمه الدفع الذى لاـ ينتهى، فهو ليس حكرا على عمر واحد يأتيه اجل، انما من أجل بناء الاجيال التى تأتى دون أن تصرمها الآجال انما هو فى الحقيقة المطلقة مجهود تشبث يحقيقة رزم الانسان حتى ينتصر الانسان. أما القيم على هذا المجهود فهو الذى لا يعرضه الموت للغياب أكثر مما يبقيه فى ساحة الصراع عن طريق توارث الصفات، من سلف الى خلف، و هى هذى الصفات الموفورة تخفظ المجهود فى خطه الممدود.

تلك هى العصمة أيها الامام، جمع اليك حدودها جدك البعيد المدى، فاذا هى لك فى كنى توافرت فيها الصفات، كأنها قنوات تستقى منها. فأنت أبومحمد، و أنت الزكى، و أنت السبط، و أنت الريحانة فى الجنة، و أنت الامام قمت أم قعدت، و أنت السيد، و أنت المجتبى.

انها القنوات التى و شمت بها.، لتكون اليها مشدود الالتزام، كأنها فعل من أفعال التحضير، أو عملية من عمليات التخمير، تلبسها ثوبا يتباهى به فلا يخلع، و تلتزم بها قميصا يمتصه عريك الى عظمك، و تمشى بها كأنك طود له

[صفحه ۱۱]

جذور فى الأرض و رياحين مورقة فى الفضاء و تترمد بها فتخرج على الوشم الذى يخلد به طير العنقاء.

بالاضافة الى ذلك، فأنت المسحوب نقطة من الخط الطويل، لا لأن يقطع الخط بل لأن يبقى له - بك - حال الوصل: وصل الأبناء بالآباء، و الآباء بالأجداد - انها كريمة سلالة الأجداد، ثبت طويلا عليها وجود الانسان المهيأ للتلقط بكل قبس يشع على ضمير الانسان. من قصى - الى عمرو العلاـ - الى عبدالمطلب - الى الذى نمت فى حضنه، و رشفت الشوق من عينه - الى أمك الصديقة التى حضنتك فى أحشائها ستة أشهر لا أكثر، و لم تقبل أن تكون أما لك وحدك، بل أما أيضا لأبيها - و لا يصل الرزم الى أبيك حتى نلمح أنه سيد من الأسياد هو قطب من الأقطاب، و نور للعقل، و ركن من أركان الاسلام.

من مثل ذلك كله كان تحضيرك للسهر على الارث المجيد، و لم يكن لغيرك قدم فى الساحة العريضة، و التى هى الآن عريضة تحت عين جدك المتوسعة المأخوذة بكل هذه الابهاء، و التى صدق رصيده فيها و صدق حسه، و صدقت رغائبه،و تطلعاته،و تحسباته - فكنت أنت الذى ضاءت به الاشارة.

هذا هو الاطار الذى أعد لأن ينزل فيه الامام الحسن بن على، لتكون له منه الحدود، كل الحدود، فهل صدق الزمان فى سيره، و تمكن هذا الامام من التلبية، تنفيذا لكل ما أوكل اليه؟

انه ليخطىء الظن فى أن مدى الرسالة المطروحة الآن على هذا الانسان الذى يتدرج تدرجا بطيئا الى مثال هو مقيد بزمان، بل أنه مدى يتناول بدايته من الحقيقة المستمرة التى تلقطت بها هذه الرسالة الى الحقيقة المستمرة التى لا ينقطع بها الاستمرار فى ثبوت الحق فى

الحياة – انه المدى الذى يتعدى الوقت فى الزمان الى المسافات التى يطول بها الزمان، كما و أنه يتعدى الفرد فى وجود الانسان الى القيمة المستمرة و المحققة وجود الانسان.

ان الطرح الذى ابتدأ بابن عبدالله محمد كان نتيجة تولد الشوق الكبير من الاحتكاك الملتهب بالجوهر – جوهر الحقيقة المكنونة فى قلب اللسرمد – فكان

[صفحه ۱۲]

هذا الطرح بداية موصولة بالحق الذى ليس له بداية و الذى به و منه وجود الانسان، ثم ان الطرح هذا و ان يكن قد قام به فرد معين، فانه يتجاوزه – اذ تخلو منه الساحة – الى سواه ليصبح هذا الطرح ذاته ملك الانسان، لذلك هو مخصص له و موجه اليه، و منوط به، ما دامت الحياة مستمرة لا بوجود الفرد بل بوجود الانسان، لذلك فان رسالة محمد لا تزال هى فاعلة حتى اليوم.

و الامام الحسن، لقد عين مسبقا لأن تنتقل اليه القيمومة و سيحاول أن يلتزم بها ما دامت له الأنباض فى الحياة، و سيتركها الى الغير مربوطة بنهج سيكون لها فى مجال الديمومة.

ها هو يقف حائرا على المفارق التى وقف عليها جده اللاهث المدثر، و أبوه التعبان من صروف الدهر، و ها هو قد راحت يده تلوح بالاشارات الهادية الى حقيقة السير على الدروب المعوجة بالانسان أتراه قد نجح فى تقويم المسالك.

و ان يكن قد عاش فى ذلك الحين المغمور بالعلى و التنكر لاكتشاف حقيقة الذات،فانه أول من أشار الى حقيقة السلوك فى الدرب الصحيح المؤدى الى حقيقة البناء. لقد كان بناء الانسان فى نهجه موقوفا بتوسيع الدروب لا بتضييقها، ببناء المجتمع الكبير و القوى، لا بتفتيته و توزيعه على كل قبيلة من القبائل فيصبح عدة مجتمعات بالضعف توهى – بازالة أسباب الداء قبل أن تنقلب هذه الأسباب بدورها الى مسببات جديدة تتعمق بها أسباب الانهيار.

لقد ابتدأت الرسالة بهذا الربط المتين، و كان أساسها هو التوحيد، و لقد حققت به الانفتاح، و الانضمام، و الالتمام، و الانصهار، و تحقيق الجنى و الازدهار، و لكنها فى اللحظة التى وصلت فيه الى الامام – كانت قد رجعت بها الأورام الى الداء القديم الذى يفتك بهذا الانسان، و يوزعه الى ألف وحدة فوق ألف أرض، أى شىء سواها كان يفصل مكة عن يثرب، و الكوفة عن البصرة؟ و أى شىء غيرها فى صفين فصل الفرات عن الفرات و وسع هوة الفراق بين الشام و العراق؟

[صفحه ۱۳]

و جاء الامام الحسن بنهج كأنه الابتكار، يحقن الدم بالصلح الأبيض حتى تزول الأورام، فتلتقى قدم بقدم و حسام بحسام، حتى يكون للمجتمع العظيم قلب واحد وزند واحد يلعب بالسيف أمام الشمس و تخفق به راية الحق براية الاسلام.

لقد غاب الحسن و بقى له المنهج حتى تستقيم به مناهج الأمة فى حقيقة الاسلام، فما هو هذا المنهج، منهج الامام؟

[صفحه ۱۷]

اطر و ملامح

حروف مبعثرة

أیها الامام - یا أبامحمد - أیها التقی الذی مشی حافیا فوق الرماد - أیها السبط الذی ارتبطت به الأواصر و انتهت الیه مفاصل الحقب، کأنک همزة الوصل بین ثقل و ثقل، فی حوملة تمتزج فیها البدایات بالنهایات.

أیها الزکی الذی تحمل لعب النار فی المصهر، فطابت به خمیرة الطهر، وصفا رماده.

أیها اللون الجدید المشرب بلون الورود المتدلیة فوق الجدران العالیة، کأنها امتداد لبحور الجنان، تشرب الکوثر بدعج العین، و تفیض بک الملامح الی حدود الرسالة التی لا یرتعش بها الا ابن نبی.

أیها الأذن التی اصغت الی الحفیف فغارت بها الأنغام الی القمر الذی التهب بالصمت و الوعد و فیض التمنی.

- ۲ -

و أخیرا، أیها المجتبی، أیجوز لی أن أقول - اذ اختصرتک بوصف - انی وصلت الیک؟.

منذ زمن طویل و أنا أسعی الی المبتغی - ولم یکن لی أبدا أن ألمحک الا بعد

[صفحه ۱۸]

أن تطول اغاضة عینی، کأنک طیف تخف خطواته مع کل دغشة ندیة تحلم بها المقاطع المارجة بأفواج الریاحین. ربما یکون لی من هنا أن اکتشفت شوق جدک العظیم الیک و هو یشمک و یقول: أنت ریحانتی الندیة - کأنک هکذا قد ولدت شعرا فی باله.

- ۳ -

کنت مرة اصلی بین یدی أبیک المنحنی أمام عرش الحق، و کنت - من فرط التهیب مغمض العینین. و لکنی أبصرته کیف تناولک من حضن أمک البتول، لیعرضک - ملفوفا بخرقة صفراء - علی جدک الرسول، حتی یعطیک اسما تمشی به علی صفحة الأرض. فأخذک بین یدیه، ورمی عنک الوشاح الأصفر - لون الزعفران، لون الأکباد المشحونة بالبغض و الحقد و التشقی، لون العروق الشاحب فیها الدم - و أزرک بثوب کان قد نسجه لک فی لیالیه الراعشة، و المفتشة عن مکوک تعیش علیه حقیقة الغزل، ثم اصطفی لک الاسم المورق من ضفاف الجنان.

- ۴ -

لقد أسری بی الخیال فی مرة من المرات التی ینبت فیها ریش جدید لطیر یشبه العنقاء - زرت فیها بیتا لحارثة بن النعمان، و هو بیت فی المدینة یثرب، مشترک الحیطان، حیث کان یقیم، فی جناح منه، جدک الرسول، و فی جناح آخر أبواک الجمیلان، علی و فاطمة - و فیما رحت اتیمن بلمس الجدران، سمعت امرأة، عرفت، اسمها من نبرة الطهر فی صوتها، لقد کانت رنمة الصوت لأسماء بنت عمیس، و هی تقول: لهفی علی فاطمة، لم تتمکن خاصرتها النحلیة من حمل ابنها البکر أکثر من ستة أشهر - و کنت أنت بالذات أیها اللطیف - و کنت الشبیة الفرید بعیسی بن مریم، تترکان - عن ستة أشهر، لا عن تسعة - مخامل الرحم، الی عالم لم تتصلب لکما الیه بعد متانة الجسد. و لکن عیسی لم یترک حنوة من حنوات الأرض الطاهرة، لا فی صیدا و صور، و لا فی الناصرة و لا فی أورشلیم أو بیسان أو جرزیم، الا ووزع علیها قدمیه

[صفحه ۱۹]

السابحتین، وزرع مواسم النارین، کما فعلت أنت بالذات، عندما تمکنت منک الأشواط فلم تترک ساحة محرورة الا حاولت ربطها

بأخواتها من الساحات فی عملیات کنت تستنبتها و تنقلها من حقیقة الرؤیا الی حقیقة الاحتراز، عن طریق التروی و الابتکار.

- ۵ -

کنت فی ذات أمسیة أستریح من عناء، و کان رفیقی، و أنا ملق رأسی الی وسادة، کتاب یحدث عنک، لم تأخذنی حروفه، لأنها کانت یابسة بحبرها الضئیل - کانت یابسة البیان، لأنها کانت یابسة الحس، و ان نطقت حتی بالحقیقة - من هنا ینقلب لحاء الشجرة الی قشرة یباس، اذ تنقطع عنها العصارة الصاعدة و النازلة فی آن، و من هنا کان الطهر فی أمک البتول مخزونا فی روحها لا فی مجری الدم فی عروقها لیکون الحب فی القلب المروی بالحس و النبل و براءة الفهم، قبل أن یکون دسما فی غدة یترابط بها قفص الصدر.

رغم ذلک فانی لم ألق الکتاب من یدی، بل رمانی هو فی غفوة أغرقتنی فی حلم. ها انی، و أنا مغف أتذکر القول: «فاطمة بضعة منی یؤذینی ما یؤذیها». ها هی الآیة، کأنها تنزل الی أذنی من أعلی مئذنة، انها مسحوبة من سورة الأحزاب: «انما یرید الله لیذهب عنکم الرجس أهل البیت و یطهرکم تطهیرا.».

و اختلطت أمامی المشاهد ها انی أسمع النبی الکریم یباهل أسقف نجران علی أهل بیته، و هم علی و فاطمة و الحسنان.

ثم رأیتنی أطوف الأزقة فی یثرب، و سریعا ما وجدتنی علی الزاویة الشرقیة من المسجد أصغی الی حدیث یتفوه به البراء بن عازب، کأنه یتباهی بشهادة تبرع بها ألف مرة: رأیت النبی، و الحسن علی عاتقه یقول: «اللهم انی أحبه فأحبه». و ما کدت أدیر رأسی الی الزاویة الثانیة حتی سمعت محدثا آخر یدعی أبابکرة، کأنه یشهد أیضا للمرة الألف: «رأیت رسول الله علی المنبر، و الحسن

[صفحه ۲۰]

ابن علی الی جنبه، و هو یقبل علی الناس مرة و علیه أخری و یقول: ان ابنی هذا سید، و لعل الله أن یصلح به بین فئتین عظیمتین من المسلمین.».

و من طرف الساحة، الی هناک، قیل لی أنه حبر الأمة عبدالله بن عباس: کان أیضا فی معرض الروایة عما سمعه من فم الرسول: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، و أهل بیتی أمان لأمتی من الاختلاف، فاذا خالفتها قبیلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب ابلیس.» و من الطرف المقابل سمعت من قیل عنه أنه زید بن أرقم، یروی عن النبی: «انی تارک فیکم ما أن تمسکتم به لن تضلوا بعدی:أحدهما أعظم من الآخر، کتاب الله حبل ممدود من السماء الی الأرض و عترتی أهل بیتی و لن یفترقا حتی یردا علی الحوض، فانظروا کیف تخلفونی فیهما.»

أما الصوت الذی سمعته فقطع عنی حومة الحلم، فانه کان لأبی هریرة شیخ المضیرة... لقد کان الاسناد عنه أنه کان اذا رأی الامام الحسن مقبلا- یتسارع الیه و یقبله فی سرته لأنه رأی الرسول هکذا یفعل. لو أن التقبیل صدق و محبة، لطابت شفة الذئب و لدغة الثعبان.

- ۶ -

ذکرتنی قصة ابی‌هریرة بقصة سوادة بن قیس - انها قصة تقبیل السرة، قیل: عندما اشتد المرض علی النبی، بعد أن رجع من حجة الوداع، اراد أن یجمع الجزیرة بمثال حی عن المحبة و التسامح و الغفران،فعرض ذلک علی کل من بعودونه معلنا أنه یتمنی أن یقتص منه کل من اساء هو الیه و لتکن واحدة بواحدة عملیة الاقتصاص - فانبری الیه سوادة بن قیس مدعیا أنه لقی منه مرة ضربة سوط علی بطنه، فلنسمع الی ما من حوار:

- النبی الکریم - این انت یا بلال؟ ناول سوادة السوط المعلق فی الجدار.

- بلال - هاک السوط یا سوادة.

– سوادة – اکشف عن بطنک یا رسول الله.

[صفحه ۲۱]

– النبی الکریم – هاک بطنی یا سوادة.

و رمی سوادة السوط من یمینه و انحنی ساجدا یقبل سرة النبی بشفتین ملتهبتین بالجمال و النبی العظیم لیقول:

– اللهم اعف عن سوادة کما عفا عن نبیک محمد –.

– ۷ –

فی الحیز المکنون فی وجدانی ظن لم یکذبه حتی اللحظة شعوری: لم یکن لجدک الرسول أیها الامام أن یفرق بین ابیک البلیغ فی نهجه، و ابی‌بکر فی طویته، ولکنه کان الغارق فی الشوق العظیم الی تحضیر القیمة فی الانسان.

لقد کانت وعرة کل المسالک، و لقد کان لها البذل السخی من الدموع و الاعراق و الدماء النازفة من الاوصال، و لقد کان التوحید السبیل الأمثل فی لملمة المجتمع و ربطه بالانسان المدرک، و لن یکون الادراک بغیر التمرس بالحق و المعرفة، فی تغطیة بلیغة المدد، یترادف فیها الصدق و البراءة و العدالة و المساواة، تحت ظل من جناح یخفق بالحب و التقوی و نبل الحس و الشعور، هیهات لهذا البساط من الروعة و الجمال، من این له ان یبقی متین النسج من دون خیط حبیک الفتل وصامد المکوک! من هنا کان للنبی المشرف علی الساحة الکبیرة، والتی هی الآن ممدودة من لملمة جهوده، ان یضمن الترکیز فی قاعدة تتصارع علیها الاجیال دون أن تفرطها.

اعتقد بأن اناطة القضیة الکبیرة برجل یکون المسؤول الأول عن مجهود عریق التحقیق و بعید المرمی فی بناء المجتمع، و بناء الطاقة التی هی وحدها الانسان، لامر جلیل الأهمیة فی جمع الصفات و جعلها تتضافر فی حبکها لتحمل المسؤولیة الکبیرة و العظیمة والجلیلة.

من هنا یکون لهذا المسؤول المتین المنکبین بناء خاص کما هو بناء الریاضیین المتمکنین، یبدأ باکرا فی التحضیر النفسی – العقلی – الروحی، دون أن ینتهی التحضیر، فی ممارسة اصیلة الحس و الفهم و المؤدی، هادفة المران – انها الامامة کما یشیر الیها القصد – انها تمالک الصفات المتنامیة فی المسؤول المحضر لاستقبال العصمة المتمکنة من حفظ الرسالة المبنیة لصیانة الانسان الذی هو عماد المجتمع العظیم الذی یکون

[صفحه ۲۲]

هو بدوره سیاج هذا الانسان، و مصدر المدد له فی البقاء و الاستمرار فلتشهد هذه الآیة من سورة المائدة: «الیوم أکملت لکم دینکم، واتممت علیکم نعمتی،ورضیت لکم الاسلام دینا». انها الآیة التی نزلت فی غدیرخم، حیث تمت المبایعة للامام علی ذلک الذی تفتحت عینه علی ولادة الرسالة، و من حیث کانت له الرفقة المرموقة، و من حیث کانت له المساهمة فی الاعداد و التمکن.

– ۸ –

لا ارید أن تشط بی الاهواء الی غیر الاستقراء فی متابعة درس الاحداث فی مسیرتها من غیر ردها الی اسباب و مسببات، و عرضها علی محک التعلیل و ترک الحکم فیها الی المنطق.

الیس حدثا عبور الخلافة عن الامام علی ثلاث مرات متتالیة و هو الموحی له بها،کما یؤکدون، و هو الموجه و المعد لها، کما یشهد له الاستحقاق، و هو المشارک البطل فی تدعیم رکائزها، کما یدل الیه السیف و البطولة فی الساحات.

و لکن... اتکون الرسالة ملک الموصی حتی یعین من یرید قیما علیها؟ أیة رسالة علی صفحة الارض کانت ملکا للذی طرحها، و

قدمها و ربطها بعقله و روحه اعصابه، و برى بنودها، وصان نحوتها، و بنى جدرانها و سقوفها؟.

انما هى ملك المجتمع الـذى يقبلها فتثبت او يرفضـها فتنكفىء الى سـكون، و انما هو المجتمع هو الارض الخصـبة التى تقـدم الـذخر حتى يتم العلوق، و النمو،والزخم، و الانطلاق.

لم يقبل المجتمع بتنفيذ الوصية، فمن حقه أن يقبل، مثلما هو من حقه أن يرفض.

يا ليته كان يدرك القصد و المرمى من طرح الوصية، لكان له أن يحترم

[صفحه ۲۳]

الموصى و الموصى له فى آن واحد، بدلا من أن يعود الى القبلية فيسحبها هكذا من وأدها.

اليست الردات مرضـا من الوهم المزمن، يصـيب مجتمعـات الانسان ويرميها فى المعاناة المؤلمـة، الى أن يعود العقل الى ردة معكوسـه سليمة يمليها وعى جديد، و ادراك مشع، هما من الحياة مدد فى الزخم و نعمة من كرم الله وجوده؟

- ۹ -

و القبائـل فى الجزيرة انهم مـادة العرب - جمعتهم الارض، وشـتتهم الارض - لقـد كان لهم أن يفعلوا حيث تنكروا للقبليـة التى كانت ترميهم فى حقول مصفرة يقتاتون منها بالطفيليات.

عنـدما تصـبح القبائل جمهورا واحـدا فى الوعى، يكون قـد ولد فيهم الانسان فى قيمومة الفهم والادراك، وصولا الى تحقيق المجتمع المنيع الباحث فى جوهر الحق.

اتكون رسالـة الاسـلام تلبيـة للاعجة شوق هاجعة فى الطوايا؟ نادتهم فانسـحبوا اليها، كما ينسـحب العطش بالغزلان خلف كل سـلك تلمع فيه لهثة ماء؟.

و كان التوحيـد باسم الله الـذى «لا تراه العيون بمشاهدة العيان و لكن تدركه القلوب بحقائق الايمان» و كان السؤال من ذعلب اليمانى موجها الى الامام على عن رب على، و كان الجواب، و كان التوحيد مربوط الايمان بالذى يرى، و بالذى بسط الحياة على كف الازل، من لا بدايـة تلحظ، الى لا نهايـة تـدرك، من حيث يكون الانسان فى ولادة دائمـة، يكتشف ذاته مزروعا فى صدر الحياة - بلا شأن - الى أن يجد شأنه فى المجتمع الذى يبنيه صاعدا لائقا بعزته و كرامته كأنسان.

[صفحه ۲۴]

- ۱۰ -

كان قميص عثمان منسوجا قبل أن يولد - يا له من قميص، بدلا من أن يستر عريا،كشفه - و لكنه كان مشغولا على نول تلعب فيه ريح سموم، و أن تكن قـد هبت عبر الفدافـد المحروقـة باللفـح - فليس هـذا الوهـج هو الذى اندفق على هذا النول بوطأة النار، بل أن البلية المسـعورة برجم الحمم، هى فى القبليـة الـتى لاـ تنـام الاـ على القلى المحروق بنبـات الحمض! يـا له من نول فصـلت عليه الجزيرة كل قمصانها القديمة، فهلهلتها الريح الى ألف سهم.

ايها الامام المجتبى - كانت لك المحاولة البارعة وانت تتسلم المركز المسنود بمثل هذا العود - و لكن الولاء هو الذى كان معوورا - و بـدلا من أن تنجـح بعمليـة حقن الـدماء، و جعلها فى اللحمة الممدودة و المشدودة، هوت بك مفاصل الارض، لتبقى لك فيها ريح لطيفـة تـذكرها - اذ تعود بها دورة الى الحق - بأن السبيل الأمثل الى العزة فى الانسان، هو ربط المجتمع بوحـدة انسانه بوعى هوله فى

تحقيق المجال.

مع البداية

بهذه الصفحات المعدودة و عنوانها «حروف مبعثرة» أحببت أن أستهل هذا الكتاب عن الامام الحسن. تشكل هذه الحروف المبعثرة رؤوس أقلام لمواضيع تظهر فيها بعض الملامح الملفوفة بأوشحة من رموز، مشيرة الى الأطر التى أحاطت بسيرة الامام، و لقد عنونتها بحروف مبعثرة، لأن مهمة الامام بالذات لم تتحقق لها جوانب الجمع و الارتباط على سياق رتيب، بل تشعثت بها المفارق فى لوالب من الأحداث قطعتها عن خطها و بترت خطواتها فجعلتها تتوقف عن السير فى طريق قد اعوج، لتعود فتقحمها - من جديد - فى طريق آخر، رسمت خطوطه بقدمين مسحوبتين من حقيقة الساحة، و من حقيقة رمالها و غبارها،و أورام مفارقها، و من مساحاتها بالذات التى كان قد جمعها الجهد و الجهاد: من أطراف اليمن، الى كل المطارح المنهوكة من أرض

[صفحه ۲۵]

الحجاز، الى الكوفة و البصرة و السهول المطروحة فى أحضان دجاجة و الفرات الى الغوطة التى ينز عليها بردى، الى الشاطىء المكشوف و الملفوف بالارض التى ولد فيها عيسى المغتسل العماد بنهر الأردن... كل هذه المساحات أصبح الآن يهددها التقاطع، وراح يتلازج بها عكر ممزوج الوحل بالكبريت - فما هو هذا الوحل الذى راحت تتلازج به ساحة الاسلام، و ما هو هذا الكبريت الذى راحت تصفر به أوصال الجهاد؟!.

من المعلوم أن رسالة الاسلام هى أطروحة بكر، نقلها النبى محمد من جهده العزيز الامتثال لا نتشال الجزيرة من عتمات ليس فيها أكثر من سرج شحيحة لا تكفى شيئا فى اظهار معالم الطريق - هنالك انسان يقفز قفزا فى الياالى، يفتش عن واحة، و ما أن يطلع عليه النهار حتى يفتش عن ظل - و ذلك هو التفتيش المضنى، والذى هو أقل من حرمان. الا أن هنالك انسانا - أيضا - بتحلى بالذكاء، هو وديعة ربه فى الحياة، و ان أى جهد يبذل فى سبيله، يخلصه رويدا رويدا من متاهات تضنيه و تقصيه عن حقيقة البحث فى الشؤون الكبيرة التى تجعله - عن حق - انسانا راشدا.

فلنختصر - لقد أثمر الاهتمام العظيم - لو أنه لم يكن مغروفا من حقيقة الفهم،و صدق العزم، و عمق الرؤيا، لما كان ليثمر. و ها هى الأطروحة، لنها فى الرسالة، انها فى الكتاب الجديد الذى لم يكن الا ليحلم به هذا الانسان حتى يجمع به موارد فكره، و موارد عيشه، و مواد دفاعه عن نفسه، و عن حقه فى الوجود. انه نظام حياتى - فكرى روحى - مالى، و هو ثورى فى حقيقة التنوير،و التطوير، والتحقيق. و لقد قبله هذا الانسان المشتاق - بعد لأى، بعد تردد، بعد رفض.... و لكنه أخيرا قبله وراح يتذوقه كأنه طعم جديد لجنة كان يحلم بها حتى اكتشفها مزروعة فى روحه، و فى خياله، وفى وجدانه.

قلت - قبله كتابا، ولكنه راح يسمع منه،، أكثر مما يقرأ، فهو لم يتعلم القراءة بعد الا قليلا - هنالك أعداد وفيرة من أمثال هذا الانسان، لا تزال تشردها الجهالات فى عمه طويل. عندما ينقلب هذا العمه الى ثقافات، تكون قد فعلت الرسالة ال جديدة، وطابت بانسانها الجديد.

[صفحه ۲۶]

و لكنها فعلت - لقد بدأت تفعل - ستستمر تفعل - و لن تنتهى تفعل، لأنها بنيت هكذا لأن تفعل، لأنها من الحياة: جهد، و بذل، و

عقل و، تصـمیم. أليست من هنا فاعليتها؟ و هی کـذلک، فهل يمكن أن يكون الاهتمام بها أقل شأنا منها حتی تبقی متماديۀ فی الفعل المتطور فتتأصل و تنقش فی النفوس و فی الوجود؟.

سيكون الاهتمام بها من أجل اسـتمرارها فی حقيقۀ الفعل، ضـلعا جديدا من ضـلوع الأطروحۀ التی انشـغلت بها الرسالۀ؛ فكيف رسمت حـدود هـذا الاهتمام والتنامی؟ و تلک مهمـۀ جديـدۀ نبتت من صـلب الرسالـۀ ذاتها، لأنها منها فی مادۀ الوصل و الارتباط – فكما أن الرسالـۀ جليلـۀ بهـذا المقـدار، فمن المحتم أن تكون مهمـۀ الصـيانۀ جليلـۀ بالمقـدار ذاته، واسـتطرادا أقول: كيف رسـمت حـدود هذا الاهتمام، و هل رسمت فعلا حدود المهمۀ؟.

ان الذی يصون الرسالۀ اليوم هو صاحب الأطروحۀ الحاضر – فهو الذی قدم الرسالۀ، و هو الذی تعهدها، و هو الذی دفعها الی الساحۀ، و هو الـذی لاـ يزال يـدفعها، و هو الـذی – أيضـا – ينتظر خلو الساحـۀ منه؛ فمن تراه يعين خلفـا له يتنـاول مهمـۀ السـهر عليها؟ انه من الجحود أن يهمـل المجتمع العظيم الـذی رفعت من شأنه هـذه الرسالـۀ. لست أنتظر أن أجـد حريصا علی الرسالـۀ أبلغ ما باريها – أتراه أعد الاعداد الكافی ذلک الذی سيتناول منه و عنه عمليۀ الدفع و التكميل و التصعيد؟.

حری به أن يفعل – كثرهم الـذين حوله – أكانوا مهاجرين، أم صاحبيين أم من الأنصار الفاعلين – لقـد أعـدتهم الرسالۀ اعدادا مجيدا، وان متفاوتا فی الفهم و الصـلابۀ و الادراک، أما تعيين القيم المتفرد، و ان يكن – فی الدلالۀ اليه – تعرض لاحراج، فلا مندوحۀ عنه، و لن يكون عن طريق القرعۀ، بل بتخصيصه باعداد نفسی – عقلی – روحی طويل الأمد، يجلوه الاحتكاک،

[صفحه ۲۷]

و الاختبـار، و بعـد فی النظر،و تحضـير مشـتق من الرسالـۀ، و من الغيرۀ عليهـا،و من تفهم مراميها و مرآئيها فی الحياۀ، فهل حصل هـذا الاعداد من قبل الرسول؟

أول ما تمتد الاشارۀ الی رجل فذ، كان ربيب الرسول – لمع اسـمه فی الجزيرۀ، و فی جميع أنحاء العالم الاسـلامی – منذ ذلک الوقت الی اليوم – انه علی، فهل سـيمثل أصـبع الرسول اليه؟ انه ابن عمه، و لقد حضـنه فی بيته، و كان ثانی فرد فی الجزيرۀ يعتنق الاسلام، و زوجه من ابنته فاطمـۀ التی كـانت متفردۀ بحبه، و التی حصـر ذريته بابنيها الحسن و الحسـين، وأفرد لهما حبا خاصا دغمهما بالجنـۀ.... أيكون كل ذلک حاضـرا و محسوبا فی الاعداد المنتظر التنفيذ؟ و هل هو – بحد ذاته – اشارۀ الی التخصـيص و التعيين، تعيين علی، و من بعده يناط الأمر علی التوالی، بالذريۀ التی تبقی وحدها فی المجال؟.

كثر هم الـذين لمحوا الاشارۀ، و لقـد كانت، عريضـۀ و عريضـۀ، الی درجـۀ لا يحتاج معها الی نص يزيـد وضوحها، و يثبت حدودها، وينقلها من حالـۀ العرض الی معنی الفرض،و لكنهم كانوا كثرا – بالوقت ذاته – اولئک الذين لمحوها و حجبوا العين عنها،و لم يريدوا أن يفتشوا لها عن نص يثبتها، فهی – بالنسـبۀ اليهم – تخصـيص يحرمهم من حق المشاركۀ فی تحمل المسؤوليات الجسام، فالانتخاب، من هذا القبيل هو المفسح فی المجال لتقديم البارزين فی طاقاتهم المهيأۀ، و الأنسب منهم هو الذی يكون له التعيين.

و غاب الرسول عن الساحۀ، و مع اللحظۀ الأولی من غيابه – و هو مسجی تتم علی جسده الطاهر عمليۀ الغسل – و قبل أن تحصل عمليۀ الـدفن، و قبل أن تنشف العين من دموعها حتی ترى أين هی الطريق، و قبل أن يمهد التمهل دربا للتبصـر.. قبل كل شـیء من هذا، تم السـباق الی دار السـقيفۀ، و تم الحجز علی كل نظريـۀ فی التعيين المسـبق، وفی التخصـيص المقفل،و حسـما لكل اعتراض يحصل، تم تعيين أبی‌بكر الصديق أول خليفۀ للاسلام.

من البديهی أن نحكم أن عمليۀ كهذه هی عمليۀ تعيين لا عمليۀ

[صفحه ۲۸]

انتخاب، فلانتخاب هو استشارة الجماهير، و الاستشارة هى وعى معزز بثقافة. لست أظن أن انتخابا واحدا من هذا النوع قد حصل فى تعيين أى خليفة من خلفاء الاسلام، لا بد أنه كان يصل بمبايعات مقهورة و مهدور فيها الدم! لم ينتخب - اذا أبوبكر، بل جاء نتيجة تمثيل خفيف جدا، قام على صراع بين بعض الصحابة و بعض الأنصار، و لم يحصل أبدا على اجماع، و بهذا يكون رفض التعيين وقوعا فى تعيين ممهد لخلاف.

ان الفئة الثانية الممثلة بعلى، والتى لم تستشر - كانت مقتنعة بالتعيين الذى أشارت اليه ارادة النبى - فهو تعيين مربوط بجوهر الرسالة، و هو تعبير عن مركز دينى، قبل أن يكون تعبيرا عن مركز دنيوى، بمعنى أنه دين قبل أن يكون دولة، و هو دولة بعد أن تصلح بالمثل التى تقدمها الرسالة أساسا فى كل شرع. انه دين قبله أن يكون سياسة - و هو سياسة عندما تعززها الرسالة بالهدى والرشد، و هى تعيين منبثق من جوهر الرسالة، أكان مثبتا بنص، أم مشارا اليه بتلميح، انه جوهر الرسالة، أما الانتخاب، فلتبن الرسالة - أولا انسانا يتوصل الى حقيقة الانتخاب. لاـتزال الرسالة فى أول الطريق - و هى التى توفقت و خلقت انسانا - و لكنه لم يصل بعد الى السوية المؤهلة، فلتبق هى الآن فى المرحلة التى تؤهل الانسان و تحضره للوصول الى حقيقة الانتخاب.

تلك هى النظرية التى قسمت الى خطين: واحد يريد الشورى، أو الانتخاب المفروض - و ثان يتعلق بالتعيين الذى تحضره التقوى، و تؤهله للقيادة و تبتعد به الجماهير عن انقسامات قبلية، لم تكن يوما واحدا فى مصلحة الأمة المشردة - هنا و هناك - قبائل على صفحة الأرض!.

ذلك هو نصيبك من الساحة التى راحت تغرق من جديد بوحل قديم لاـ يخصب، و بكبريت ليس فيه نسمة أو بلة - أيها الفتى الصغير. لقد مات جدك و هو ينظر اليك و هو مستعجل لأن يسلمك المهمة - أتراك تستعد منذ الآن لاستلام المهمة، فتحيا أنت فى عين جدك التى لا تزال هى تحيا فى الرسالة؟!.

[صفحه ۲۹]

المهمة

و المهمة - أنها رسالة الاسلام - ليس فى قصدى أن أحددها، بل أن أتناول منها ما يشدد ضلوع البحث الذى هو الآن فى متناول الاشارة. من هنا ان المهمة الجليلة هذه، و التى هى قضية الوجود، أو بالأحرى قضية الانسان، ليس يطالها التحديد بأوسع مما يحصرها الاسناد بأنها مصدر من مصادر الشمول، و ضلع من ضلوع الكون، محضرة لأن تبتدىء بالأنسان، ومهددة بالخبو اذ تخمد جذوة العقل فى الانسان. انها - بالفعل - قضية الانسان، فهى رسالة منزلة الحروف لهدى الانسان، والسير به قدما فى الدوائر المدركة حقيقة الكون، و المتلقطة بكل سبب من الأسباب التى تنتقل بالانسان من الجهل الى الوعى و الادراك و التحقيق الانسانى، فى قبس من نور يشع بالحق،و ينعكس بالجمال، ويتحلى بالمثل التى تبنى المجتمع العظيم بناء صادق المفعول،و صامد التركيز.

ان التحديد فيها،و كمهمة، يقوم - اذا - فى التدليل الى مؤدياتها. يكفيها التلميح انها جمعت فى غار فتحت فيه كوى تدلت منها حبال من الشوق الذى يولد فيه ولادة دائمة: الانسان، وفكر الانسان و عقل الانسان، وخيال الانسان، و كل الأمانى الكبيرة فى ضمائر الانسان؛ و يكفيها التبصر انها نزلت فى قرآن، لم يقرأه الانسان الأمى فى المحيط الذى نزل فيه، بل أخذه الى وعيه و جنانه حفظا كأنه التسجيل - بل و أخذته الأجيال فى امتدادها الانسانى المجتمعى، وطوقت به وجودها الحياتى،و بنت عليه كيانها الحضارى،و راحت به

الی دیمومة فاعلة واعیة بالحق،و راشدة بالمثل، داعیة الی المعروف، و ناهیة عن المنکر.

أتکون زهیدة هذه القضیة فی کل مجالاتها فی التحقیق؟ و أی شیء هو الزهید فیها:ولادتها فی غار؟ و لکنها فتحت الغار علی الأغوار - کذلک بالتمام کانت ولادة عیسی فی مزود - ولکن الطفل الذی تدفأ بأنفاس الحملان، هو الذی حملته البراءة الی اکتشاف الحق المزروع فی روع الانسان... کما فی

[صفحه ۳۰]

مزدود، کذلک فی غار، کانت ولادة جدیدة، کانت ولادة الاسلام، و فی المزود کما فی الغار، و کان حبک الزنار الذی لا یزال أطول زنار تزنرت به کرة الأرض، و جمعها کلها فی وحدة الاسلام.

لیست زهیدة - اذا - هی القضیة التی تلقی حروفها ابن‌الغار. لقد انتشل بها انسان الجزیرة من غیبوبة طویلة الی دیمومة فی الحق، و بدلا من أن یکون لهذا الانسان تعلق بألف عثنون لألف صنم، داس عنه ابن‌الغار کل الثعانین، و قدمه واحدا، حرا، کریما، الی الحضن الواحد الذی هو رب العالمین، لیلتقی به الجمع و التوحید، و تتنزه به الصفات الکریمة التی بها تبنی المجتمعات - و هل بغیر التوحید یثبت الانسان و یزدهر مجتمع الانسان؟.

رب المهمة

عفوک اللهم، یا أیها الخالق الذی ناجاک الامام علی «بان العیون لا تراک بمشاهدة، و تدرکک القلوب بحقائق الایمان» أنت الرب، والاسم لک فی الربوبیة - فأنت الباسط الکون: لففته بالمجرات، و أنرته بالشموس، لتکون أنت المجرات،و أنت الشموس، فی الدائرة التی تبتدیء باللابدایة، و تنتهی باللانهایة - أنت الغار الذی حفرته فی حنوة من حنوات مکة، و أنت الذی رفعته الی حیث لا ینتهی غور - و أنت الذی نزلت علی عبدک و رسولک محمد حرفا، ناطقا، محرور الشوق والعین و الخیال؛ فأنت الرب، و أنت الاله، و أنت الکل فی الاتصال، و أنت الانسان فی الانسان الذی یحمله الوجد الیک.

بهذه اللمحة من وجدان رغبت أن أفتتح حصتی فی البحث عن المهمة الجلیلة التی تتوسع برسالة الاسلام، و التی یکون النبی الکریم محمد رکیزة من رکائز الأداء فیها لتصبح منسوبة الیه،و لیکون - بالتالی -أول من امتثل بها امتثالا واعیا،و فاهما، و مدرکا،و ملبیا، ولیصبح - بالنتیجة - أحق من یملکها و یملک حدودها، و یملک سنتها، و حق الدفاع عنها. هو الذی دخل الغار فهو المغور -و هو الذی نزل علیه الوحی، فهو المتقبل - و هو الذی ناء بالحمل، فهو

[صفحه ۳۱]

المتحمل - و هو الذی حمل التبلیغ، و هو المبلغ - و هو الذی التهبت أوصاله،فهو المدثر - و هو الذی تقدم الی ساحات الصراع، فهو المصارع - و هو الذی بشر بالحق، فهو الهادی - و هو الذی جمع القوم، فهو الموحد - و هو الذی مات فی سبیل تحقیق الرسالة، فهو الخالد. انه - اذا - هو الأحق بتخصیص و تعیین من یقدر أن یعتنی بالرسالة، رسالته.

ولکنه لم یوص الا من أجل الحفاظ علی الرسالة، لأنه کان یدرک أن الرسالة التی هی بین یدیه انما هو قیم علیها، و لن تکون رسالة ما لم یشتغل بها ضمیر الانسان، و وجود الانسان، و حقیقة الله فی الانسان، فهی رسالة لا یملکها الا الانسان، و لا تعیش الا فی تحقیق وجود الانسان.. أما الوصیة بتعیین قیم علیها فهی من ضمن حدود الرسالة التی زرعت جدیدا فی وعی انسان لم یتحل بعد بالتمرس،

فهو انسان مسحوب بتلابیبه من غفوة طال مکوثها تحت الرماد: فی جاهلیة مشرورة القبائل تحت أقدام الأصنام، و مسحوبة الأذیال فی رعی شحیح النبت والجنی، محروق الظل، و مسعور الاوار.

أی شیء کان لهذا الانسان المفتش لاهثا عن واحات یرزع فیها وجوده؟ فلنسأل المساحات العریضة التی کان یزرعها بقدمیه الحافیتین، تنتقل به من فروسیة موهومة، یحقق بها بطولة التعدی و الغزو، علی عزم لا یهدأ الا بعد الأخذ بالثأر فی استشارات مریضة قوامها استنزال الفأل من نجوم اللیل، و التیمن باللات، و العزی، و مناة، لتکون له بنیة عائلیة مؤسسة علی الوأد فی الحفر السوداء.

لا لعمری، و لم تکن الواحات أمامة مظللة بسماء، لأنها کانت مفرقة علی الساحات العریضة دون أن یجمع ما بینها الا وازع خفیف من عقل، ووازع خفیف من روح. لیس للتنظیم فی مجتمعات الانسان الا المعرفة کضابط له، و هی التی یقدمها العقل النامی بسبل الحق، و ها ان الحق قد جاء مفتون السبل لقد نزل فی کتاب لهذا الانسان المفتش عن کتاب.

[صفحه ۳۲]

منذ أن اندلعت علی الجزیرة السنة الحرات، وانسان الجزیرة یفتش عن کتاب یلطف له الأجواء من قیء الرماد، و کالغزلان الهائمة خلف کل رجرجة من سراب، کانت تنادیه الواحات، دون أن یتسع فیها لقدمیه مکان طویل الظل أو غزیر الندی، لیبقی له التوق الیها مقصورا علی مسارب کانت تتناولها أفواج القبائل النازحة بالتفتیش عن الظل، و النسمة، و الماء. بتفتیشها هذا، و بنزوحها عن الصدر الأم کانت تجد الواحات، خلف خلیج العقبة – مثلا – مشرورة علی طول الشواطیء، وفی أحضان السهول و الوهاد، و حول کل ضفة من الضفاف، ابتداء من السهول المفروشة حول الأردن، الی التی یبارکها بردی و یمدها بالزلال، الی تذلک التی تنداح برفارفها انبساطا فی أحضان الرافدین.

لقد کان کل ذلک تشتیتا و تنزیحا للقبائل، و سلخا عن الصدر الذی أنجب و ربی، لیکون لکل موجة نازحة حوملة حول المکان الذی راحت تخیم فیه و تبنی علیه کیاناتها الجدیدة.

منذ زمن بعید کان یحصل ذلک، قبل الأرامیین و الأموریین – مثلا – قبل الأشوریین و البابلیین و الکلدانیین و الکنعانیین و الفینیقیین والأکادیین –قبل موسی و حامورابی و سرجون... انه الزمن الغائر فی التاریخ، ذلک الزمان الذی کان یقذف بالقبائل العربیة الی کل جوار فیه واحة، و فیه نسمة و فیه ظل، و فیه تربة مخصاب غیر محروقة بزفت و کبریت – من هنا کانت العروبة المفتوحة الأرجاء – یمینا و شمالا – ضمن حدود مبصومة بصما بخطوات العروبة الجغرافیة المجال، باتصال الأرض و لو علی حساب الحرات و الاحقاف و الربع الخالی، و التاریخیة المدی علی ذمة امتداد الشموس فی الزمان.

و جاءت الرسالة من أجل الانسان التائة المفتش عن کتاب یقرأ فیه حقیقة وجوده،ویجد فیه واحة راسخة البجوحة یجمع فیها واحاته المشرورة و المهددة أبدا بالنشف.

و کانت العبقریة مصدرا فذا فی عملیة التوحید – ها هی القبائل کلها تنجدل الآن فی الحبل الوا حد الذی یزنر الانسان حیث یوجد هذا الانسان –

[صفحه ۳۳]

أکان فی الفدافد المشویة بأنفاس الحرات، أم فی الواحات المنتعشة بأنسام الصبا، انه الآن انسان واحد فی مجتمع واحد، یسخو علیه التوزیع فی مساواة واحدة لا یضنیها الطمع و الجشع أو الظلم و البهتان.

ذلک هو الأساس فی الرسالة التی طرحت، و التی طابت بها عملیة التنظیم. أخذتها الجزیرة بکل قبائلها، فحطمت بها أصنامها، و محت بها قبلیاتها، ومشت بها الی تحقیق ذاتها، وروت بها کل و احاتها التی کانت تعطش أبدا الی الری الصحیح، و جمعت بعها انسانها المشرد عبر التاریخ فوق البطاح التی ما ذاقت الا نادرا طعم الخصب فی التراب.

ألم تنجح الرسالة فی طرح ذاتها علی الانسان الذی قبلها و حقق بها أشواقه التی جعلته أمة هادیة لکل الأمم؟ فهل لهذه الرسالة أن تنتسب الی غیر صاحبها العظیم محمد؟ و هل لغیر محمد بالذات أن یهتم بنشوئها والحفاظ علیها، بتعیین وصی، أمین قادر علی متابعة السیر بها قدما، دون أی تراجع عن التحقیق العظیم المرجو لها فی مجال الترسیخ، و من أجل هذه الأمة الناشئة حدیثا لتحتل مکانتها تحت الشمس؟.

القیمومة

لم یکن القصد فی البحث السابق تجرید انسان الجزیرة من عباءاته التی کان یرتدیها فی لیالیه الساهرة، بالنجوم، فالأرض ذاتها هی التی حاکت له تلک العباءات من لون رمالها، و من نسج مساحاتها المرمیة الأطراف و هی التی متنت قدمیه بالعدو و صبغت عینیه بکحل من سواد لیالیها یتقی به، فی بعض ساعات النهار، وطأة الشمس و زفیر اللهب. من هنا کانت له قیلولات یجمع فیها عقله، وروحه و خیاله، فی مناجاة للحقیقة الهاجعة فی لبه، یهمزها لتهمزه الی لقاء، ومن هنا - أیضا - کان له التهیؤ - و ان بطیئا - مربوطا بانتظار.

لم تتربع الأصنام فی مکة حجارة نحتت هکذا بلا دلیل، بل انها حملت من قیلولات ذلک الانسان ما یجعلها فکرا مفتشا عن رمز: فالصخرة البیضاء

[صفحه ۳۴]

المربعة فی الطائف - مثلا - و التی هی «اللات»، انما هی لتمثیل الصیف المعذوذب بالهدوء و طیب الجنی، لتکون «العزی» عبارة عن ثلاث شجرات فی وادی نخلة یتدلی من أغصانها ما تنوء به من تمر، دلالة الی الخصب الذی تفرشة فی التراب لمسة الحیاة - أما الطریق العریضة و المحروقة فی آن، و التی تخط الوصل الرائع بین مکة و یثرب، فهی التی یتربع علیها الحجر الأسود، اله الجزیرة «مناة» فی رمز مسحوب المهابة من عمق اللیل و لونه، لیدل الی الموت الملفوف بالقضاء و القدر.

ما ونی هذا الانسان یجمع ذاته فی قیلولاته الطویلة، لم تکن له هذه القیلولات الا لقاء بین فکره و روحه و استعداداته للبحث و التحقیق. و حتی قفزاته الکشافة و المستمرة فوق الأرض، و التی کانت تنتقل به من جوار الی جوار و من واحة الی واحة - مع الیمنیین و الحمیریین، و الغساسنة، و المناذرة المخمیین، والهاشمیین الطالبیین القرشیین، أو الأزدیین و البکریین - حتی النیل، حتی الأرض من أفریقیا المطلة علی المحیط، حتی الشواطیء المتوسطة التی تخفرها صیدا، و جبیل و أوغاریت... کانت کلها - هذه القفزات - دلیلا علی استعداده لأن یکون کشافا عن حقیقته کانسان، وبحاثا عن شؤون الحیاة التی تربطه بالکون.

انما هو هذا الانسان - ابن‌الجزیرة العربیة بحراتها، و واحاتها علی السواء، برمالها، وغبارها، و لیالیها، و شموسها و امتدادها فی الزمان، باستمرارها و ترابطها بالزمان و المکان - فلنجزم أن الانسان المجتمعی هو ابن الأرض کلها التی نشأ فیها، و امتص أثداءها، ابن أمسها الطویل حتی یکون ابن یومها الحاضر، و یومها الذی یأتی دون أن یفقد معنی الاتصال، انما جسده هو المجبول من کل عناصرها المجتمعة من کل حجم المکان و وسع الزمان فی التلاحم المتمکن من انشاء الانسان - انما هو تعبیر عن هذا الشوق المجموع التنائج، و الذی تصاغ منها عظمة المجتمع و بالأحری عظمة الانسان.

ان القیلولة التی انسحب بها الفتی الأمین محد الی غار مزروع فی حنوة

[صفحه ۳۵]

من حنوات مکة، کانت من الصنف الفرید. لقد تجمعت فیها - علی مهل - کل قیلولات الجزیرة، فی عملیة استعراضیه کشافة عن حقیقة الانسان فیها عن جمیع محاولاته فی التحقیق، عن جمیع أشواقه المتعثرة و هو یجتاز المکان و یطویه الزمان - لقد رافق کل القبائل فی کل مسیراتها: رافق الأرامیین - مثلا - ینتقلون الی الشمال، و یساعدون فی بناء مدینة حلب و الشام - رافق الکنعانیین الذین رماهم التجوال الی شواطیء المتوسط حیث ساهموا ببناء صیدا و صور، و نحتوا الحجارة فی قصور رأس شمرا، و أتموا صک حروف الأبجدیة فی سیناء - رافق الکلدانیین و البابلیین و الأشوریین و هم یمتطون صهوات الخیل نحو الکوفة و البصرة والمدائن من أرض العراق.

لم یکن زهیدا ما وفرته له القیلولة فی غار حراء، و لقد کان أکرمها سخاء علیه اتصاله بالخط المربوط بالجدود - انهم هم الذین کان یؤول الیهم الاهتمام بأمر الانسان فی الجزیرة عن طریق سیاسة تتلقط بکل أموره الحیاتیة، ففی أیدیهم کانت السقایة و الرفادة، و الحجابة، و الندوة، و القیادة - فهم القرشیون من بنی هاشم - هکذا کان خطهم فی الاهتمام بأمور الناس: من قصی، الی عبدمناف، الی هاشم الثرید المکنی بعمرو و العلاء، الی عبدالمطلب المکنی بشیبة الحمد، و الذی کان مثله یعتزل فی غار حراء ثم یأتی لیفرق العطایا علی بنی قومه الذین سموا کلهم قرشیین أی مهتمین هم بدورهم بحاجات الناس.

قبل أن یخرج محمد من قیلولته فی غار حراء، کان قد جمع الی صدره کل شؤون الانسان، و کل أشواقه فی الوجود الی الحق، لیصوغ منها وحدة المجتمع الأصیل فی رسالة واحدة القصد و النهج و التطبیق، مبنیة علی جوهر الحقیقة فی الوجود الانسانی.

تلک هی الرسالة العظیمة الجامعة والموحدة و هذاک هو العظیم الذی تلقاها من مصدر الحق، و مصدر الشمول، لیکون هو وحده صاحب الحق المطلق فی القیمومة علیها.

[صفحه ۳۶]

القصد من القیمومة

اذا یلیق القول بأن القیمومة علی رسالة الاسلام هی من حق الرسول العظیم، فان ذلک یعنی أیضا بأن الرسالة هی ملک المجتمع الذی قبلها، و راحت تفعل فیه، فهی لیست ملک الذی قدمها أکثر مما هی - بالتالی - ملک الذی قبلها فتجسدت فیه. انها الحقیقة التی تقدمها الحیاة فی مجتمعات الانسان. و لکن القیمومة هنا لا یتجرد منها الا معنی واحد: و هو الاهتمام بأمر الرسالة اهتماما مطلقا،حتی یبقی لها الاستمرار بالنسبة الی قیمتها العظیمة فی بناء مجتمع الانسان، ومن حیث تکون و تبقی فاعلة فی حقیقة الملازمة. أما قیمتها الفاعلة فهی فی تقدیمها المثل الجمیلة، ومن أبهی نتائجها توحید المجتمع، و توحید مناهجه المستقاة من مصدر واحد فاعل. ان الذی جمع الرسالة بکل حروفها، انما هو - بالذات - ذلک الذی سقاها دمه، و روحه، و فکره، و غوصه الکبیر المندغم بالحق و الخیر و الجمال، و هو الذی تلحمه بها غیرته علیها حتی تستمر فی حقیقة الملازمة الفاعلة و المتأججة بالشوق الذی لا یشتهی سواه مجتمع الانسان.

من هنا یلیق القول بأن الرسول العظیم هو القیم الأول علی رسالة هو قدمها...بل انما هی منه فی التحام رائع، واتصال بلیغ الاندغام. أما

القیمومة علیها، من بعده، فهو الذی یعینها قبل أن یرحل، و یبین حدودها و مدی فاعلیتها، حتی تأتی من لون الرسالة بالذات: قیمة و فاعلیة، و ملازمة، و مدی استمرار، و من هنا - أیضا - بمعنی التزکیة، سیبقی هو أبدا القیم الکبیر الذی لا ینتهی دوره علی الرسالة التی هی باسمه تبقی فاعلة الی المدی الذی لاینتهی، ما زال للانسان مجتمع یستمر، و ان تخسر حرفا من حروف اسمه الکبیر، تخسر - بالمقابل - ضلعا من توازنها، تلمح بوادره فی خلل یطرأ علی بنیة المجتمع، و علی سلامة المسالک التی یعود الیها وعر، أو أشوک من هشیم.

أما القیمومة - و الی من تسند؟ فذلک هو تحسب الرسول، اذ یدعوه

[صفحه ۳۷]

الرفیق الأعلی، فیغمض عینیه عن معانقة الشمس، و یسبل یدیه عن التلویح بالاشارة، ان الذی تسند الیه القیمومة هو الذی یکون مسحوبا من ضلع الرسالة،من حقیقة الوجد و حقیقة الشوق فیها، و هو الذی یکون قد تم له فهمها و تعشقها، فاندغمت به. انه الأدری به الآن، وهو لا یزال جفنه یرف بالحق، وأذنه تخفق بالدوی الأعظم - انه هو الذی یعینه من حرصه علی الرسالة، حتی لا تدب الیها رعشة من وهن... حرام - بعد التحقیق العظیم - أن تتعثر بالرسالة رجفة تثنیها عن حقیقة الطریق!.

بهذا التحسب المحق، و بهذا الحق المتحسب، و کان النبی الکبیر أن یلمح بالقیمومة الی الامام علی المهیأ لها، علی أن تکون من بعده للفتی المحسوب من شباب الجنة الامام الأول الذی نزل علیه اسم الحسن.

این هی المهمة

فلنفصل الآن بین المهمة و القضیة - فالقضیة - هی الأساس، أما المهمة فهی عمل یقوم فی الحفاظ علی القضیة. و للاهتمام بها - شأنا حیاتیا اجتماعیا - فی النظرة المصیبة فی البقاء، و الاستمرار، و الدیمومة، ان القضیة - اذا -هی الرسالة التی بذل فی سبیلها ما جعل الانسان الجدید یعتنقها فی وعی جدید.

من هذا المنطلق نقول: لقد تحققت الرسالة فی جمیع مبادئها، وغایاتها، و وضوح مرامیها - لقد وضعت خطواتها علی جمیع الدروب التی أخذ یسلکها الانسان الجدید، لقد تم کل ذلک تحت عین المصطفی، و من ضمن عشر سنوات أرختها الهجرة، و ها نحن الآن فی السنة العاشرة، أی فی السنة التی تمت فیها حجة الوداع، فی هذه اللحظة بالذات، لحظة اغماضة عین القائد المشرف علی الساحة یأتی دور المهمة، دور انتقال القیادة من ید الی ید، حتی تبقی المسیرة فی خطها النامی. و لکن الید التی انتقلت الیها أثقال المهمة لم تکن هی التی دل الیها حرص الرسول، و کانت الخلافة من نصیب أبی‌بکر الصدیق بدلا من علی بن أبی‌طالب، الذی علیه لفاقه الرضوان.

[صفحه ۳۸]

و نالت الغفوة بدورها جفنی أبی‌بکر، وها هی الدرة المشهورة بید عمر بن الخطاب، یسوط بها ظهور أولئک الذین یعصون أوامر الله بعدم الانصیاع لعمل الخیر، والبر، والمعروف، فی اتیان المنکر - انها الرسالة، لا تزال فاعلة فی مجالها المکشوف، دون أن تعمق ذاتها فتصبح فی الدم و فی البان.

و بدورها الدرة تنفتل الی خنجر فی یمین أبی لؤلؤة، غلام المغیرة یغیبه فی صدر ابن‌الخطاب، ذلک الصدر الذی ما توسع الا بمناهج

الاسلام.

و انتقل الدور الى عثمان بن عفان، و لكنه كان - و هو يجمع القرآن الى دفتين تقيانه من الغفلة والنسيان - غافلا عن اعادة صناعة نول قد حطمه الرسول العظيم، و نجى الأمة من الأحلاف الكاذبة التى كانت تفرق الجزيرة بدلا من أن تجمعها - انها صناعة القمصان: فهى لم تلبس أبدا فى عرى، بل عرت دائما من لباس. على هذا النول حيك قميص عثمان، و اجتاز به الدنيا و أثقالها، و أوزاها: الى ذمة الرحمن.

و بعد اثنى عشر عاما طواها كلها - بأيامها و لياليها، و ثقل الثوانى فيها - و صل الدور الى الامام على فجاء يعالج الحكم باعادة تحطيم الأنوال البائسة و تمزيق القمصان التاعسة، وحفر الله فى الصدور، وزرع الحق فى المهج، و تلوين الدروب بالخطوات الحافية - جاءه ابن‌ملجم، وهو لم يخلع قميصه البالى!و لكن الأنوال لم ينفع بها التحطيم: فهى لا- تزال منقوشة فى البال، و أبولؤلؤة هو هو خلف الحيطان المطمورة بالرمال، خطواته منتعلة بسماكة الكبريت، و خنجره مسنون بالسم، و مشحوذ على الصدأ

من أبى‌بكر الصديق، الى التاسع عشر من رمضان، مسافة تقارب ربع قرن. أتراها كانت كافية لجلوة الامام الحسن حتى يقوم بالمهمة التى وصلت اليه.

الجلوة

سيكون لنا البحث فى الجلوة الأساس التى اجتلى باه الامام الحسن: و كان بها المجتبى. تمهيدا، فلنطرح سؤالا: ما هو الجمال؟.

[صفحه ۳۹]

و لكن الجمال، قبل أن يكون تحديدا، و تفصيلا،و شروطا، و مواصفات - هو أن تراه بعينك، و حسك،و خيالك - بعقلك أنت، و قلبك أنت، و وجدانك أنت، و لحظة ئذ يكون لك الادراك المشع بالجمال الذى هو كل ما فيك من ادراك للحق الذى هو لك، و الذى هو اطارك. أما أنت، فانك لست الفرد الصغير ذا العين التى ترتج جائلة فى محجرك، بل أنت الانسان المجتمعى الذى حقق فعل الوجود فى الكون، و امتلأ- بالشوق الحى الذى يعبر عنه المجتمع الحى. ان المجتمع - و النظرة هذه - هو الذى يحدد الجمال تحديدا نسبيا، بالنسبة اليه،و تحديدا مطلقا، بالنسبة اليه أيضا - لأن كل نسبة فاليه، و كل مطلق فاليه أيضا - لأنه بالفعل يكون هو - المجتمع بالذات - هو الذى عين الجمال جماله، ولن يكون الحق الا جمالا، و لن يتجلى الحق على غير الذى يسعى اليه، و ان المجتمع الذى لا يقدر أن يسعى الى الحق لهو المجتمع المتنكب الذى لم يجد دربا بعد الى لمح الدفع الذى يبنيه.

هذ هو المجتمع المقصود بناؤه، المقصود سحبه من الغفلات العجاف، المقصود جمعه ضمن الدائرة العظيمة التى هى ملعبه فى المكان و الزمان. ما خار عزم النبى العظيم، ولا ضمر شوقه، ولا تقزم خياله - فليكن لهذه الأمة العظيمة مجتمعها العظيم، ليكون لها الانسان العظيم، فليكن منها نبيها، ومن شوقه الرهيف قرآنها، و منها و لها سنتها و شرائعها و شعائرها، نابتة منها و لها، من ايمانها بالحياة، من ديمومتها فى اعتناق الحق، ومن تجرؤها لبناء حقيقة انسانها... فلتكن منها النبوة، ومنها القاعدة، وفيها الاستقرار، وعنها الانطلاق بالهداية الى جميع الأمم حولها، حتى تجمعهم اليها روابط انسانية تمتن التفاعل الموحد النظرة الى الحق و الخير و الجمال.

أرانى أشرت باقتضاب الى مصدر جليل كانت منه فاعلية ممتازة فى جلوة الامام الحسن. ها هو فى السابعة من عمره عندما ترك جده فراشه على الأرض، الى دثار من نور الحق، انه اليوم يتذكره فى كل لحظة تتقدم به الى واحة التميز، و الى استجلاء المعانى و فك الرموز - ان الشعاع الذى كانت

[صفحه ۴۰]

تتراسل به عين الجد اليه، وهو طفل يلثغ بالحروف، كان نورا يتدفق اليه، كأنه نوع من شموس لا ثقل فيها للظى. انه يجد فى كل يوم يأتى وصفا و تفسيرا - أكثر عمقا و أشد بهاء - لكل تصرف كان يداعبه به الرجل المهيب؛ لم ينس أنه كان يرتحله - دون أن يزجر - و هو فرق منبر فى المسجد يخطب فى الناس، و يعلمهم كيف لهم أن يتصلوا بالحق، و دون أن يهربوا من التعب الذى به سيلهثون اذ يجاهدون، لأن لهاثهم بالذات، هو الذى سيد ربهم على صدق المسير. و أدرك الحسن أخيرا أن قبول الجد - و هو فى المسجد - بأن يعتلى الحفيد ظهره، دون أن يصد أو يزجر، لم يكن فقط سماحا له بالدلع، أو فرط محبة ليس لها أن تصد و تزجر، أو ميعانا بعاطفة قد ترتد على صاحبها بشحوب المهابة - انما العظيم بالوصول الى التفسير: أن الرجل الكبير، لم يكن فقط لينحنى أما البراءة، مناديا لها بارتحاله، بل متهيبا له أمام الساجدين بين يديه لجمال الحق، بأن الأبناء هم زينة الدنيا، بأن الحب الوسيع يبنيهم للأمة معاول معاول، بأن الأمة جمعاء تناديهم من عالم الأصلاب الى عالم الأرحام، حتى يخرجوا بناة لها، بزنود تناديها الأرض فى العمارة المرصوصة بمداميك البناء: «تناكحوا، تناسلوا، حتى أباهى بكم الأمم يوم القيامة» و ها هو الآن، مثال للأبوة المحبة و المدركة، و الراضخة لتحمل مسؤولية الانجاب، و ان لم تكن المسؤولية الجليلة الآن ملقاة على من هما من صلبه - دما، و حبا، و ايمانا - على ذى الفقار، و فاطمة الزهراء، ابنته و أمه فى آن، بالطهر و الحنان.

أما التفسير الذى كان يرميه طويلا فى ساحة عريضة من ساحات التأمل و التهيب، هو أن اعتلاءه ظهر جده، و هو فوق منبر الصلاة، و هو دعوة من الجد القدير، فى ايماءة من الضوء ما يخفيها عن العيان، ومن القصد ما يجعلها فى عيان يطويه الليل الى صباح يغرق فى تباشيره. تلك هى عملية باهرة و ماهرة من عمليات المبايعة، انه هو - الرجل العظيم - أول من يبايع، و أول من يدعو الناس الى المبايعة، انه يعرض ابنه الحسن من فوق كتفيه، و يدل اليه يزنديه، و عينيه، و بشموخ من فوق كتفيه، و سيقول عنه بأنه من أهل البيت،و أنه سيد أهل الجنة، و أنه من بين الذين طهرهم تطهيرا، والذين هم أحد

[صفحه ۴۱]

الثقلين، والذين هم المطيبون، وهم الذين يبرزون على الخط الموصول بالأجداد، وانهم هم الذين يردون عليه الحوض - و الحوض الآن هو الأمة جمعاء - الأمة المستيقظة من هجعتها، و الأمة المجموعة بوعيها - لقد جمعتها الرسالة، و هو الذى جمع الرسالة، وهو و على، هما أبوا هذه الأمة التى هى أرث الأجيال، والحسن و الحسين هما - بالتتالى - خلفان تتم بهما عملية الربط بالخط الضابط فى المسيرة - أليس الحسن من هنا سيتناول التركيز؟ و من هنا سيبدأ بالمسيرة؟.

[صفحه ۴۵]

المراحل

وصلة البحث

فليكن لنا - قبل أن نستهل القسم الثانى من هذا الكتاب - تؤطئة توضح القصد من الدخول فى فصل جديد عنوانه «المراحل».

بالحقیقة، ان القسم الثانی من هذا الکتاب لا یخرج فی مؤداه عن أن یکون امتدادا لکل ما جاء فی القسم الأول الذی هو «أطر و ملامح» - فالمراحل التی سیمر بها الامام الحسن، منذ خلو الساحة من جده الرسول، الی الساعة ذاتها التی ارتحل فیها - هو الحفید - الی الحضن الرفیق، کانت کلها أطرا له، و ملامح عنه، تلونت بکل ما جناه من الاختبار فی الحیاة، لم یتمکن من جعل نفسه - و بالتالی - من جعلنا معه نفید منها فی مدار التطبیق، الا نزرا یسیرا، قد یصبح جدا وفیرا عندما تدرک الأجیال الصاعدة کنهه الوسیع.

و من الحقیقة أیضا أن نشیر الی أن القطعة الأخیرة من البحث السابق و عنوانها «الجلوة» - لا تمنع عن الحسن حصول جلوات متلاحقة و مستمرة فی کیانه النفسی - العقلی - الروحی. انما کان تفهمه لمقاصد جده الکبیر عاملا بلیغا فی تحضیره القادر علی الاستیعاب، وفی تمتین منکبیه لتحمل المسؤولیة الجسیمة التی یجب أن تکون فی موازاة الرسالة التی بلغتها شفة لم یمکنها أن تنتسب الا الی أهل البیت. أما الجلوات المتتابعة و السریعة التلاحق، فهی التی یمشی الیها الآن فی هذا القسم الثانی من هذا الکتاب «المراحل»، مشیا وئیدا. من

[صفحه ۴۶]

مرحلة الی مرحلة سیمشی: من ابن‌سبع سنوات، الی أن ینتهی به الشوط - مع أمة التی کان یفرک و جنتیه بملامس کفیها، فیشعر أن جنان النعیم کلها لیس لها مثل هذا النعیم - و تموت أمة بین یدیه، فیأبی أن یصدق أن فی الجنة الموعودة قطعة أوسع و أخشع من مثواها الصغیر فی البقیع.

لقد انتقلت به خطواته - من قبل - و هی صغیرة بعد، الی حیث یلقی رأسه الصغیر فی حضن أبیه الکبیر الذی هو الآن - فی تصوره - فی المرکز الذی حضره له جده الذی غاب و هجر.. ولکن قدمیه الصغیرتین ترتطمان بالحفر التی تصونت بها دار السقیفة، سقیفة بنی ساعدة - و یرکض ملتاعا... فی الزاویة الصامتة وجد أباه و أمه التی لم یکن قد أجهز الحزن علیها بعد - و هما یجتران - علی مهل - أذی لا یقدر أن یتحمله الا من تطیبت نفسه بنفحة من نفحات نهج البلاغة.

فی مثل هذه التنقلات الوئیدة ستزداد، رویدا رویدا جلوة الحسن. فلیکن لنا أن نجده متأملا وجه أبی‌بکر الصدیق الذی احتل المرکز الذی کان منتظرا أن یملأه أبوه، فاذا هو الصدیق فیه... فلیکن لنا أن نرافقه الی مواجهة الخلیفة الثانی، عمر بن الخطاب، بدلا من أبیه أیضا فی استلام دفة السفینة..فلیکن لنا کذلک انتقال ثالث فی المواجهة الی الخلیفة عثمان بن عفان الذی تولدت فی حضنه الثورة الجدیدة التی قضت علیه و نقلت الی أبیه ورما أبیض، لابد أنه تثاقل علی الرجل الجلیل فی کل ما عاناه فی ادارة الناس، أکان فی معرکة الجمل، أو فی فی معارک النهروان، أم فی صفین، مما أدی به أخیرا الی السقوط صریعا فوق الساحة التی مشت فوقها رجلا مثل ابن‌ملجم.

ستکون للامام الحسن مشاهدات غزیرة المادة لهذه المسرحیات التی مرت فصولا من أمامه، و سیکون لکل مشهد منها حفر معین فی نفسه و، جلوة جدیدة مضافة الی کل من الجلوات السابقات. فلننظر الیه کیف یجتاز هذه «المراحل»

[صفحه ۴۷]

بخطوات متأملة، صاغت منه غواصا و جوالا یعرف کیف یغوص، و یعرف کیف یمشی.

السقیفة

ليت الاجتماع هذا الذى حصل فى السقيفة، قبل أن ينقل جثمان الرسول الى مقره الأخير - ليته حصل فى الكعبة، و فى دار الندوة بالذات، وفى ظل القواعد التى كان يتربع فوقها العدد الكبير من الأصنام، لكان الاجتماع هناك يحظى بتمثيل قبلى أوسع بكثير مما حظى به فى حضن سقيفة لبنى ساعدة، جمعت عدة ممثلين فقط، من مجموع القبائل.

ما هو رجاؤك أيها الرسول الكريم فى أمة سحبتها من كل قبلياتها الى قبيلة واحدة تنادى باله واحد، لا بألف اله! ولقد ناديتها، و سمعت منك النداء. فى مدى عشر سنين فقط، من سنى الهجرة، ابتداء القرار، و انتهى القرار، لم يبق فى الجزيرة كلها قبيلة واحدة تركع بين يدى صنم لها، لقد انجدلت كلها جدلا غزيرا، وجاءت من أطراف الأرض تبايع الذى ألبسها لباس الحق، و لباس التوحيد، و لباس الرشد، و الهداية، و العدل، والمساواة، - لباس الانسان الجديد الذى اكتشف - فى نفسه - قيمة الانسان.

منذ السنة الأولى بدئت تبنى المساجد المتطاولة بماذنها التى تصرخ بالناس:

كونوا واحدا لاله واحد يعلمكم كيف يبنى التوحيد النفوس، فى ظل من خير، و ظل من معروف، و فى كره عابس بوجه المنكر - و فى السنة الثانية ولد للناس شهر كريم سمى رمضان الصوم: انه مدرسة الاسلام فى التركيز على اهزال الجسد اذا ما حاولت أن تستبد به شهوة من شهوات الدم - على أن يكون معنى الصوم ابتعادا قاسيا عن الموبقات التى تتغذى منها الفواحش، وهى قواضم من أنواع الجرذان، تقرض الحبال، وتفككك الرزم فى المجتمع الذى لا- يبنى الا- على الحق، و العدل، و التطيب بالفضائل، وكلها مآثر فى المجتمع النظيف المبنى على الحب، والوفاء و الولاء. من هنا كانت - من رمضان - أمثولة صدقات

[صفحه ۴۸]

الفطر، و زكاة المال، و انعاش الفقراء، و كل من يخسرون معينا لهم فى الحياة:

كالأرامل، و الأيتام، و المشردين، و الذين تصيبهم أمراض و عاهات.

و فى السنة الخامسة ولدت فريضة عظيمة المعنى، و بعيدة المقصد و المرمى - انها فريضة الحج الى البيت العتيق - لا لأنه حجارة يابسة ليست لها ريشة من فن - بل لأنها تمثيل لبيت الأمة المزروعة فى صدر المكان، وصدر الزمان - انه البيت الذى بناه خط الأجداد، عبر آلاف السنين، انه بيت نقشته أشواق القبائل كلها، مزهوة فى الاجتماعات الواحدة الطويلة فيه، و لا لتعبد الأصنام، بل لتحضرها كلها للانحناءة أمام الذى سيفرطها الى غبار، و يجمع منها الحجر الأسود، حتى تشاركه كل القبائل بحمله على منديل، و وضعه فى المكان الأعلى و المصون بالايمان، و الموسوم بالاشارة الى الله الواحد الممثل التجسيد فى حجر.

ذلك هو الحج الى البيت فى التذكير أن الأمة جمعاء، هى وحدها التى يجمعها الرباط، رباط الحاضر بالماضى، ورباط الحاضر بالآتى، فى ظل الرسالة الجديدة التى قلبت المفاهيم الى وحدة مامحت الماضى، بل طورته و لونته بمجالات الحب و المؤاخاة، و هى كلها آفاق جديدة مفتوحة أمام فكر و نفس الانسان.

و فى السنة السادسة كان غزو الحديبية، ليتلوه صلح الحديبية، و هو صلح ربط الهاشميين - الطالبيين بالسفيانيين الأمويين، و امتنعت بتوحيدهم قريش - و فى هذه السنة تم انتشار الاسلام بكتب وجهت الى هرقل قيصر الروم، و الى المقوقس أمير مصر، و الى النجاشى ملك الحبشة، و الى كسرى ملك فارس - ان الهداية التى تتنور بها الرسالة هى للنشر على عالم الانسان؛ كذلك هى الشمعة المضيئة لتنير، لا- لتوضع تحت مكيال... ان السنة السادسة هذه، كانت متينة الانجاز، لأن القبائل كلها مشت طريق التوحيد، ولفها التسليم و الاذعان.

لم يكن قليلا ما أنجزته الرسالة على السنوات العشر من الهجرة، فالموضوع من الكتاب لم يأخذها كلها فى عرض احصائى و تاريخى، و اكتفى - من

[صفحه ۴۹]

السرد الضئيل – بالاشارة الى أن التحقيق العظيم الذى حصل، انما كان نتيجة توحيد القبائل كلها حتى تم للرسالة الانتصار، و لقد قدمت السنة العاشرة فصل الختام فى حجة الوداع، وفى خطبة الوداع، فليكن لنا، بخطبة الوداع، ربط باجتماع السقيفة التى هى الآن فى المجال.

كثرهم الذين قالوا بأن خطبة الوداع خلت من وصية تخصص الخلافة بشخص على – و كثر أيضا هم الذين قالوا بانهم سمعوا الوصية – هنا و هناك – بتمام العكس، فأهل البيت هم المشار اليهم، بتمام القصد، و بوضوح الكلام، فليكن للفئة الأولى عذر بأنها لم تتسمع الى وصية خصت بالامام، و لكنها لا- تقدر – فى تغافلها – أن لا- ترى أن للامام مركزا شديد الالتصاق بالنبى، و لا يجوز أن يقابل ذلك بعدم الاهتمام – فعلى هو الريب فى البيت، و هو الأمين على المكرمات، و هو الرفيق فى كل المهمات و الملمات، وهو المساعد الممتاز فى كل عملية من عمليات الكفاح، وهو الذى شارك فى الدفاع بسيفه المشهور: ذى الفقار، و بزنده المفتول: لا فتى الا على، و بقوله المسبوك فى نهج‌البلاغة، وفى الرفقة الطويلة و المديدة الاتصال، و فى كونه رفيقا و زوجا لفاطمة الزهراء، ابنه الرجل الفريد الذى خصها بحب فريد.

سيان اذا: سمعت الوصية أم لم تسمع، و لم تكن – فى رأيى، بحاجة لأن ينطق بها، فهى فى المكنون أبلغ، و بغير الحروف لهى الأفصح، و لها – – فى النية المخبؤة فى العين، و فى القلب، و فى الضمير، وفى مجرى الأحداث، وفى الخطوات المحفورة فى الساحات شكل الدلالات فى التعبير عنها: بأنها وصية مخصصة برجل موثوق به، و مرزومة له رزما أنيقا و مدروسا ومقصودا، فالرسالة ذاتها، لا يمكن أن تتابع سيرها، على الخطوط الطويلة بدون من يتداركها و هى فى ذمة الجهاد و الصراع.

جليل أمر السقيفة، يذعرها غياب الرسول، ليطل لها الخوف على الرسالة التى هى الآن ركن أساس فى تلمس الانسان حقيقة بدت للعيان و هو – بها – راح يؤرخ وجوده المجتمعى الناهض من عتمة النسيان.

[صفحه ۵۰]

و لكن الأمر الجليل هذا، لم يسنده حسن التصرف، و لم يجمع الرأى الذى صوبته الرسالة، و قومته مناهج الرسالة، و غاياتها، و مراميها – فالرسالة التى جمعت انسانها من كل قبلياته، لا يصح الآن أن تملأ فراغا بغير هذا الانسان ذاته – و بدلا من أن يستدعى على لملء هذا الفراغ، كان له أن يستعبد،حتى عن الاستشارة.

لا يجوز أن يحسب هذا الكلام دفاعا عن على، ليست القضية – بتاتا – قائمة على هوى، انما هى مبنية – مسبقا – على نظرة مختصة بالرسالة: من أين كان لها أن تنجح، و كيف كان لها أن تثبت و تستمر – نجحت بالتوحيد،و لن تعيش لحظة واحدة بالتفرقة، من هنا صح سحبها من القبلية حتى تثبت أركانها، ولن تعاد اليها فتحصل زعزعتها، فتخسر منذ الآن – قبائل الجزيرة – ارتباطا بعروبة تخسر قيمة الانسان – لا بل فلتتعزز جميع هذه القبائل بعروبة مجردة من كل عصبياتها المهدورة القيمة، ليكون لها فى الاسلام وحدة جامعة و واعية بالحق، تبرزها أمة هادية للأمم، مما يجعلها فى حقيقة الصف المتحضر الذى تؤخذ منه القدوة فى بناء المجتمع الصحيح المبنى على الصواب فى حقيقة بناء الأسرة الانسانية التى تعززها روابط متينة مشدودة بالحق و الرشد و العدل و الجمال.

تلك كانت نظرة الرسول الذى برأ الرسالة التى يتزاحم الغيارى على صيانتها الآن فى اجتماع السقيفة. لا أيها الأسياد، أكنتم من الأنصار، أم من أهل الصحابة، ليست الخلافة كرسيا للتوازن الطائفى بين قبيلة و قبيلة، و ليست مركزا محصنا لتثبيت الزعامة، و السيادة،

وجنى المغانم و الرفاه، انما هى - فى الأساس - تأديـة بليغـة لبناء الانسان الـذى يكون عماد الأمـة، و ليس لها الآن - و الآن بالـذات - محيـد عن تثبيتهـا فى الاعتبـار بأنها سـياج للرسالـة الطريـة العود، و لا يجوز أن يتسـلمها أى كان، بل المعـد لها اعـداد مربوطا بها تمام الربط.

لم يخصـص الرسول الكريم عليـا بهـذا المركز الممتـاز لأـنه طـالبى بـل لأـنه أكثر من طـالبى، لكونه لماحـا رائعا لكل ما يتعلق بشؤون الانسان، و ما تحققه المثل

[صفحه ۵۱]

فى تنشـئة الانسان - و لهـذا تعلق به، و ضـمه الطى رفقته الطويلـة، و خصة بابنته فاطمة التى لمح فيها ذات البناء النفسـى ليكون له منها ذرية تسهر على صيانة الرسالة و صيانة الأمة، و هذه هى الأمانة.

لقد كان التحضـير المدروس هذا تجنيبا للأمة من الوقوع فى عمليات انتخابية لابد أن تستيقظ فيها القبلية التى لم تمح بعد من النفوس، و يحصل الانشقاق المخيف الذى لم يكن له غير خزى سخيف.

فيما بعـد عنـدما يحين الوقت الثمين - عنـدما تكون قـد حققت الرسالة فعلها فى الانسان - عندئذ يصح أن تلتئم النخبة - تلك التى لا قبلية فيها، بل هى القبائل كلها فى واحد واع - حى لتعيين من هو الأنسب و المهيأ لأن يكون المتولى سياسة الأمة المثقفة و المحضـرة لأن تكون سيدة نفسها فى تثبيت مركزها العظيم فوق الأرض أرضها و تحت عين الشمس.

لقـد عين اجتمـاع السـقيفة أبـابكر الصـديق - للخلافـة - قـد عينه البكريون التيميون لاـ الطـالبيون - خـط السـفيانيين الأمويين، لا خط الهاشـميين، و لقـد وعى ذلك الامام على، دون أن يدرك الفتى الحسن عمق الخطر فى يقظة القبلية التى لا يمكن أن تحرس الرسالة، بل تهـددها بالانقسام. سـيكون للحسن - رويـدا رويـدا - هذا اللمح، و سـيتعلم معالجة الداء عن أبيه بالذات - أبيه الذى رضخ للواقع، وراح يعالجهة بصمت.

ابوبكر الصديق

أعز على أن أقع فى هواك من أن أهبط الى قلاك - فأنت أول خليفة أسـندت، اليه قيادة الأمة، و أول ضـلع فى صدر الاسـلام، تسلم الرايـة و تمتع بالزمام، و لقـد طاب على فمك قول يلهـج بالرسالـة، و يتمنع بها - ان الرسالـة هـذه هى التى أنت مهدت لها النزول الى الساحات التى قضمت من نعليك و أنت

تهاجر معها فى الزمان و فى المكان، من ليلى الى ليل، و من مخبأ الى مخبأ:فأنت

[صفحه ۵۲]

أول المهاجرين، و أول الصحابيين.

يا أيها الرفيق الجليل القـدر، و يا أيها اللماح صـدق المرامى و المغازى - ما من نية واحدة من نوايا الرسول، و فاتك فهمها و ادراكها، فهلا لمحت قصـده فى التشديـد على حب على، و أبرازه فى الساحات، و الاعتماد عليه فى الملمات؟هلا لمحت حبه الوحيـد لفاطمـة، كيف يغـدقه عليهـا و على ابنيهـا اللاـعبين أمامك حتى فى ساحـة المسـجد؟ هلا لمحت - من هنا - التخصـيص و التعيين، و أدركت المعنى، بأنه لا يجوز اسـتدعاء القبائل الى أيـة مبايعـة - فليكن الاقتصاد فى التعيين المركز، لا العودة الى القديم البالى الذى يرد القبلية

الى تثبيت وجودها من جديد – ان التعيين هو ابتداء الحصر بالقيادى، المتمرس طويلا بالرسالة، لا بالتفتيش عنه بين زعماء القبائل، لتبقى الأساليب ذاتها: مبايعة لا تفهم، و قبلية تستدعى على فوضى.

أضن أنك أدركت ذلك أيها السيد، و أظن أنك لم تطق الحصر و التعيين. أنت صديق حميم لعصر بن الخطاب، وهو لا يطيق الحصر و التعيين... لا- شك أنه نقل اليك ذلك، فهو الشهير بقوله: (لا- تجتمع نبوة و خلافة فى بيت واحد) – من هنا كان لابن الخطاب حزم و جزم، ومن هنا – أيضا – كان استعجالك فى قبول الخلافة عن طريق طرح المبايعة، حتى لا تتصل بالطالبيين، لا من أجل انالة الأمة حقا من حقوقها الكبيرة، ولن تصل اليها قبل أن يرزمها الوعى و النضج الى صراط مستقيم.

من هنا ان الذين بايعوك، ما شد بهم الى هواك، هذا الذى هو كل معناك، انما هو حقد قديم موروث عن تناحر القبائل فيما بينها، نتيجة تصارعها فى الرعى حول كل تربة فيها عشبة للكلأ – انما هو، بالفعل، قد تجسد فى التصرف، لتكون أنت – والله أعلم ان كنت تدرى أو لا تدرى – أول البادئين بتجريد الهاشميين من القيادة و الرفادة و السقاية – ألم يكن الصراع هكذا بين السفيانيين الأمويين و الهاشميين الطالبيين؟ فكما كانت تفصل بين الانتماءين،

[صفحه ۵۳]

قيادة عن رفادة، أو حجابة عن سقاية، فلتفصل الآن نبوة عن خلافة، دون أن تكونا مجموعتين فى الخط الواحد الذى حصل الزعامة و منعها بالنبوة.

نحن الآن – أيها السيد الجليل، و يا أيها الشيخ الصديق – تفصلنا عنك فى الزمان أربعة عشر قرنا، دون أن تنفصل عنا فضيلة مارستها أنت بالذات فبنت، أو غلطة حصلت آنذاك أيضا فأنبتت معاناة وقعت فيها الأمة و لا نزال نعانى منها، و لا يزال يصلنا بها الواقع و المصير، و الارتباط الدائم الموصول المكان بالمكان، و الزمان بالزمان، و الحاضر بالماضى و بالآتى.

عفو الله، وجل من له أن يقاضى، فان الخطأ الذى يقع فيه الفرد – فليكن من هو هذا الفرد – أكان فى مركز الحكم، أو مركز الصدارة فى الحكم – فان المسؤول الأساس عن كل خطأ فى حصوله، انما هى الأمة فى مجموعها: من تمرسها فى الحياة، من عاداتها، و تقاليدها، و تنكبها عن الصدق فى السير – فان كنت قد رضيت الوصول الى الخلافة عن طريق انعاش القبلية التى و أدها الرسول الكريم – بلا- حزن عليها و لا- تأسف – فانك تكون بحاجة الى طلب الغفران! و تكون الأمة مدعوة الى صبر آخر يمكنها من انجاز ذاتها من جديد فى محاولة فهم الرسالة التى أعدتها اعدادا جميلا يتزن رويدا رويدا بالمراس و المران.

ثلاثة: يا سيدى، ورابعهم قلم يكتفى أن يرسم الآن فيك، جاؤوك، لا ليفرضوا عليك قودا – –بل حتى يؤازروك:

– رجل متين المنكبين، قلع المزلاج ورمى بحجارة الحصن على بنى خيبر، و هو متين العقل، و متين النهج، و متين الحجة و متين الصلة بالقرآن و بالاسلام، و يجمعك به أنه من بنى قريش، على فاصل رهيف كحد السيف – انه من بنى‌طالب. جاءك متناسيا أنه الصفة التى تتصف بها أنت الآن، و بايعك بها، حتى ينعم لك فيها هذا الجلال.

– و امرأة نحيلة كأنها شفرة رمح، أو كأنها وتر يظن أنه مرخى، و لكنه مشدود الى قيثارة تطن عليها ريح صرصر، ريح مقلوعة من جوف صنج من نحاس...

[صفحه ۵۴]

لقد ظننت أنا – و هى كذلك – أنها تعبير عن ثورة لم تنضج بعد، فاكتفت بوشاح من زهر طوقت به عنقها و هى تمشى الى الجهاد...

جاءتک تطالب بما ورثها أبوها من فدک - فلم ترد أنت الیها طلبتها، بحجة أن الأنبیاء لا یورثون، و نسیت أنهم: اذ یولدون - بحکم الطبع - یورثون.

و فتی لم یبلغ الثامنة بعد - جاءک متعلقا بذیل أمه فاطمة الزهراء، بنت النبی الذی کانت صحبتک له سببا لهجرتک عن مکة، و أساسا رائعا لاسلامک الذی تمثله الآن بعده فی الخلافة، و ابن العظیم علی الذی هو رفیقک فی کل ساعات الجهاد. أما الحسن، هذا الفتی، فلیقول لک، و هو الملفوح بشمس الطریق الیک: کانت لنا شجرة الآراک قرب بیتنا المحروق بالشمس، و لیس لنا سواها فی ظل، و لقد اقتلعوها، و أنت تدری من،و اقتلعوا معها کل ما لنا من فیء -من یردها لنا؟.

و جاءک مرة أخری و أنت تخطب من علی المنبر، فقال لک: أنزل عن منبر أبی.

و نظرت الیه،و دمعت عیناک و قلت: انه لمنبر أبیک حقا - ولفک هو بعینیه المفتشتین عن کل جلوة یتبصر بها فی الغد الآتی!.

فاطمة الزهراء

و فاطمة الزهراء - لیس لها فی التاریخ صفحة تقرأ فیها سطورا - بل أنک لتقرأ بضع کلمات، اذ طاب سمعک لها، تجد أن علیها نتفا أرجة، یتوضع بها الجو، دون أن تراها العین کیف تموج بالأنس و بالعطر اللذین هما فوح بلا جسم یؤخذ بلمس، و بلا لون تشربه حدقة.

کل ما ذکره التاریخ علی ألسنة النسابین یحصره عمود واحد:

- أبوها الأمین محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب الهاشمی.

- أمها الطاهرة خدیجة بنت خویلد بن أسد القرشی.

أخواتها ثلاث و هی رابعتهن و صغیرتهن النحیلة.

[صفحه ۵۵]

- ربی البنات الأربع بدون أخ لهن یسندنه و یسندهن «بالحب الأخوی».

- ماتت الأم و فاطمة صغیرة فغرقت فی حضن أبیها.

- خصها أبوها بحب عامر و فرید.

- جاءها عدة طالبین للزواج، منهم أبوبکر الصدیق، و عمر بن الخطاب، فلم تحصل استجابة من قضاء الله.

- طلبها للزواج ابن عم أبیها - علی - ربیب البیت، فتمتم جبریل بالبشری. - حضنت أباها کأنها أمة، و اشتهرت بکونها أم أبیها، و بأنه بضعة منه، و بأنها مع زوجها و ابنیها أهل البیت،و بأنهم المطهرون،و بأنهم من أهل الجنة،و بأنهم هم الذین یردون علیه الحوض.

- سکنت بیتا، بعد الزواج، لحارثة بن النعمان، مشترک الحیطان، و خلف الحائط الثانی کان ینام أبوها.

- ولدت الحسن و الحسین و ابنة هی الثالثة، ثم خطفها الموت عن عمر لم یتجاوز العشرین حزنا علی أبیها الذی غاب قبلها بعدة أشهر.

- حصر بها ارث أبیها، و بابنیها میراث آخر، دمغ بالامامة.

- تفوهت بخطاب واحد، فی باحة المسجد، بوجه الخلیفة أبی‌بکر الصدیق، تطالب فیه بنحلة هی - فدک - خصها بها أبوها، فقطعت عنها بعد أن طوی أباها الغیاب.

- من صفاتها:

- اسمها - فاطمة: أی مفطومة عن النار هی و ذریتها

- البتول: أى تعذر من يماثلها بالطهر.

- الحوراء: أى لم تحض و لم تطمث..

الصديقة: أى الصادقة فى تكوينها الروحى و المادى على السواء

- الزهراء: ربما المشتقة من الأزهرين: الشمس و القمر، و من اجتماع النورين: على و فاطمة.

تلك هى فاطمة فى التاريخ، ولقد اجتهدت الأسانيد المتكررة فى ابراز ذلك مع اشارات بالشرح و التعليل يبقيان يابسين على مضغ و اجترار مملين.

[صفحه ۵۶]

و الحقيقة أن فاطمة هى تنزيل فى خاطر الرسول - ما أن أخذها عن صدر أمها خديجة الى حضنه الأبوى، حتى شعر بأنها الشوق الهائم فى روحه منذ اللحظة التى تجسد هو فيها من تربة الأرض - هكذا بنيت أوصاله على شفافية من الوجد ترنحت به الآن،و هذه الطفلة بين يديه، يقرأها قراءة مستجيبة الى كل أحاسيسة المتأثرة بهذا النوع من البراءة، و النعومة، و الأنوثة الفريدة الملامح.

انها وحدها - فاطمة - دون أى طفل فى الوجود، قد فعلت فى أبيها، ما قد فعله الانبعاث، لكأنها هبطت عليه مبزغا من تلك المبازغ التى كان يستنير بها كل وجوده الشفاف، حتى لكأنها تجسيد لجبرائيل، يتقبل منها الوحى المنعش المملوء بالعذوبة، و الأمل الموصول بالغد الأكبر - انها بين يديه سر ينطوى فيه حبه لخديجة أمها، تلك الشمعة التى تذوب فى حبه، و ينطوى فيه حنينه المشتاق الى آمنة - أمه - تلك التى أهزلها الفقر و لم تناوله ثديها، فاستعاروا له أمين غيرها: ثويبة، و حليمة السعدية، و ما كان لهما الا أن تعمقا حفر الشوق فى قلبه الى أمه الكبيرة التى نزلت فى جدثها، قرب مكة، فى الأبواء، و هو بعمر ست سنين، و لم ينعم برؤياها أكثر من ستة أيام - أجل، ان فاطمة - بين يديه - سر ينطوى فيه أيضا هذا المبهم المتلاعب فى أحاسيسه المتزاحمة فيه الى تحقيق كل عظيم لا يزال هاجعا الى غد تستيقظ فيه أحلامه، و أمانيه، و آماله.

لقد انعكس كل ذلك فى تصرفه مع حبيبته فاطمة، فكانت تنمو بين يديه كأنها الزنبقة البيضاء - كأنها عطره، أو الطيب الذى يحب أن يتطيب به - كأنها الأمل الذى لا يجوز له الا أن يكبر - كأنها العذوبة التى لا يسمح لها الا أن تتمسح دائما بالجمال - كأنها الشوق المطهر بنار ليس فيها رماد - كأنها الأم يطهرها الحب، و تغسلها الأمومة بماء الورد و كل أزهار الجنان.

كيف يقال عن فاطمة الزهراء أقل من هذا؟ و هى فى عين أبيها أوسع من سماء...من هنا هجى اسمها و لونه بالصفات: فهى بلا اثم، و لن تدخل قصاص النار، و لهذا: فهى فاطمة، وهى البتول، و هل فى الأرض كلها الا مريم تماثلها بالطهر و العفاف؟ و هى الحوراء لأنها منسوجة من شفافية الطهر و الجمال، و لا شىء فيها ينضح بغير العبير الزلال، و هى الصديقة، و هلى أبهى

[صفحه ۵۷]

من عينيها المعجونتين بقلبها البكر، و طهرها الشفاف؟ و هى الزهراء، و هل الأزهران أبهى منها و أنقى؟.

يا للنبى العظيم! يرى ما لم ير، يربط الأيام، بعضها ببعضها الآخر، فلا دابر يموت، و لا حاضر يفنى، ان الغد العظيم هو الذى يولد، و هو الذى يبقى، و الرسالة التى هى لأجل هذا الانسان، انها مولودة من أمسه الدابر، و من يومه الحاضر، الى الغد الزاهر الذى لا يجوز له أن ينطفى.

و فاطمه الزهراء، والتى هى نصيبه الأوحد فى المجال، و فى الاستمرار، و فى تمام الصفات، انما هى منه فى الخط النزيه، و هى منه

لمتابعة الأشواط – انها للغد الذى يأتى: فلا تفنى اللحظة الواحدة فى الرقاص الذى تخلد عليه عقارب الساعة – ستكون مبنية للغد الآتى، و ستكون نيرة أيضا بالتحامها الرائع بالنير الآخر الذى هو الآن يربو تحت ابطه – فعلى هو الذى سيربط الثوانى برباط الزمان، و سيكون له فى المكان قاعدة تحيا بالزمان.

قلت: أن النبى اللماح رأى ما لم ير، و لكنه – فيما بعد – أصبح يرى هذا الذى قد شقت عنه الحجب. ان أول اللماحين المقاصد كان على – و فاطمة بالذات كانت تشعر بالحنان المهيج،و هى تنتقل – بين يديه – من كف الى كف، كأنها اللعبة الراقصة على الزهو و الدلال،و كانت تشعر، و هى تغرق فى عينيه تسبح فيهما على أنوثة فيها عبق مجنون البوح والفوح – و لما امتلأت به حبا و فهما و صدقا،و ما قدرت الا أن تتبناه، كأنه وصلة من قبلها،و فيض من مناغمها، و لفح فى عروقها،و أو توأم لها فى الكيان – و لما دقت ساعته الأخيرة وانخسفت ثوانيها عن النبض، جنت بأحزانها، و غرقت فى حسرات من الدمع لم تمهلها أكثر من بضعة شهور... ولما أدركت أنها أضحت فى حالة التلاشى طفت على ثغرها بسمات ناعمات، لأنها أصبحت جاهزة للقاء أبيها.

فى الساعة التى انتقلت بها فاطمة الى جلال السكون، كان الحسن و الحسين – وهما فى الثامنة و السادسة من العمر – يلمسان لمسا حزينا ثوب أمهما المسجاة فى فراشها،و هما يشعران بحفيف هابط اليهما حول السرير: أنتما

[صفحه ۵۸]

ريحانتى – و أنتما سيدا أهل الجنة – و أنتما امامان، قمتما أم قعدتما و أنتما ميراثى، و من أهل البيت المطهر تطهيرا.

عمر بن الخطاب

و أنت، يا أميرالمؤمنين، كنت – ليس فقط من أبلغ اللماحين، بل – من أخطر اللماحين، و لكن – اسمح لى يا سيدى أن ألمح أيضا: أنك لم تبن، من لمحك، تقاك، و أكثر مما بنيت منه دهاك – و الخطر الخطر لم يكن من فيض تقاك، بل كان من فرط دهاك! تلك ملمة لم تقع فيها أنت وحدك بالذات، بل العصر كله آنذاك – و بئس ما كان لها من التعدية الى العصور الآتية من عصور الاسلام!.

مهما يكن من أمر، فأنت العظيم بما أفاض عليك الاسلام من الورع و التقى،و كلها قيم فيك و شمتك و شما على الصفحات المجيدة من تاريخ الاسلام،و أحصتك من بين الصحابيين الأولين، و المهاجرين الثابتين فى الأمانة لحقيقة الرسالة التى تم لك بها اعتناق و التحام، و تم بها و منها اقرار لك بأنك الحريص عليها، و الصائن لها،و بأنك تستحق فيها مركز الخلافة.

أيكون هذا جزاء على كل ما لمحت من حقيقة الاسلام، عظمة الاسلام،و روعة التوحيد فى الاسلام؟ و لكن لمحك هذا – و هو العظيم الأجل – لم يسم مثله لمحك الثانى. أجل يا سيدى،و أنك لمحت نية الرسول كريم، وهى يغرف الشوق غرفا الى ابنته فاطمة،و كيف ينظر اليها بالمنظار البعيد،و كيف يغلفها بهذا الجمال،و بهذه القدسية، و بهذه الروعة المسحوبة من العمق،و من الجلال.

من المؤكد أنك لمحت و فهمت و أدركت أن النبى الكريم لم يعطف على أهل بيته أكثر مما يعطف على أبناء أمته، و ان ذريته ليست فقط محصورة بعلى و الحسن والحسين، بل أن الأمة جمعاء هى ذريته التى تدوم له فى حقيقة خط البقاء و ان الرسالة – وحدها – هى الباقية، و الواقية،و الحريصة فى الحياة. أما

[صفحه ۵۹]

أن تكون الوصية فى أهل بيته، بأن منهم المستخلفين، فذلك معناه، ان العناية هى التى أنعمت عليه بالتخصيص، و أن الرسالة تستحق الاعداء النفسى المتين، و ان الأقربين منه هم الذين يمكن الاعداد منهم و فيهم، فمه تحت العين، و تحت اليد التى تستقيم منها الاشارة، و فى حنوة الصدر الذى يخفق فيه القلب، و أمام كل المشاهدة التى يتم فيها الاستغراق المدرج أمام بسطات العقل، و الروح، والخيال و انهم - بلا شك - هم المتأثرون،و هو وحده المؤثر، و انه هو المريد، و المشترع، و باذل الذات و انه وحده المخطط، و المنفذ، و الصادق فى بعد النظر و حقيقة المرمى. لهذا كله كان منه لفاطمة شوق مفطوم، وأجل ما فيه، قصد محتاط بأن لا يوقع المجتمع الجديد فى تقسيم يفتته من بعده، دون أن يلحمه أى انتخاب للخلافة يعرض على جماهير لم ينضجوا بعد - فكما أنه هو الذى قدم الرسالة، فانه أيضا هو الذى يصطفى قيما عليها تعهدها،و يرسخ خطاها الى أن يأتى الترسيخ بيوم آخر يصح فيه انتقاء واع و انتخاب راشد.

أما الأمل الكبير، بأنه سيطاع، فلأن الذين حوله، هم الذين ساعدوه و أحبوه، و هم الذين به يؤمنون، و بهديه يأتمون، و قرآنه يقرأون، و باسمه يجتمعون.

الا أن الوصية وحدها - ياسيدى - ما نفذت - كأنك ما سمعت و ما لمحت. و على، الموصى له بالخلافة - كان رفيقك، و كنت تراه مجللا بالجهاد - و فاطمة الزهراء - كنت تراها غارقة فى عينى أبيها، كأنها قلبه فى مقلتيه - والحسن والحسين،كنت تراهما يدرجان فى المسجد، و يعتليان ظهر النبى،و هو يخطب فى الناس، ليصبح الحسن كأنه مئذنة فوق كتفيه.

لماذا أنا الآن ألمح أن الذى استتر فيك هو الذى به تصرفت - و المستتر فيك هو الموروث القديم،و انك انت هو الذى نبذته اذ بعثت انسانا جديدا. ليست الرسالة اليوم ترفض أن تجتمع فى البيت الواحد نبوة و خلافة - فعلام ينسب اليك القول: «لا تجتمع النبوة و الخلافة فى بيت واحد» - قلت ذلك عشية اغماضة

[صفحه ۶۰]

عين الرسول. كأن اجتماع السقيفة، سقيفة بنى‌ساعدة، و كان فيه ابعادك عليا عن الخلافة، و تعيينك أبابكر لها - كنت أنت فى تلك اللحظة محسوبا لها، لأنك كنت الوجيه المقتدر - و لكنك أنت الذى قدمت الصديق عليك، حتى يتحمل هو بداية رشق السهام...

لست أدرى ما الفرق بين النبوة و الخلافة، أتكونان مركز و كرسيين؟ أم انهما مركز واحد لتحصين الرسالة؟ فأيه قسمة هى الآن بين بنى‌هاشم و بنى‌قريش؟ و لكنك بهذا الوحى المستتر تصرفت،و ما تمعنت، حتى عادت اليك الخلافة بوصية من أبى‌بكر بالذات،و هو على فراش الموت، فقبلت الوصية التى لم تقبلها أنت من النبى بالذات، لعلى بالذات -.

حتى الخلافة - سيدى - و أنت تخلف بها الرسول الذى أحببت، و به آمنت - قد أبدلت لها الاسم بالامارة،و ابتداء من عهدك، صار «الخليفة» أميرا للمؤمنين - أقول: أيكون ذلك منك، لأن النبى المخلوف ينتمى الى الطالبيين الهاشميين؟.

لا أقبل أن يكون فى الكلام تجريح لك يا سيدى، كما و أنى لا أحب أن يكون كله دفاعا عن على، فأنت بالذات أحببت عليا بقدر ما أجللته، و لسوف تستيقظ فيك شهامة مرسومة فيك و مرشوقة بالنبل، عندما نحاك عن الجهاد و الكفاح اللذين أنت لهما فى الميزان، ذلك الوغد ابولؤلؤة بضربة من خنجر أسود، فلم تر أنت أن تترك الأمة تتعثر بالتفتيش عمن يستلم كرسى امارتك، لأنك - فى تلك الساعة بالذات - أدركت أن جمهرة القبائل لم يتسن لها بعد أن تستشير وعيها فى تعيين المتمكن من قيادتها، فتداركتها بلجنة سداسية تنتقى واحدا من اثنين: اما عليا، و ما عثمان و، و ان يكن قد انزلق عنك تلميح مغموز به عن الأول الى الثانى،و هذه - أيضا - أموية سفيانية حسبت عليك فى المجال المستتر الذى ما كنت قد انتصرت تماما عليه.

ما عدا ذلك - فعمر بن الخطاب الذى ترك الكرسى لعثمان بن عفان و هو

[صفحه ۶۱]

أمير للمؤمنين، قد عبأ العشر سنين من عمره بما وصف بالأعمال الجليلة: لقد وصل الجزيرة، أطرفها بأطرافها، و ربط بالعروبة كل ما وصلت اليه العروبة، و عززها بفتح الشام،و العراق، و بيت المقدس، و المدائن، و مصر و برقة - و لقد أنشأ الدواوين،و بنى الكوفة، و البصرة، و الفسطاط، و المسجد الحرام فى مكة...

ان الأعمال الجليلة أو التى وصفت بالجلال - انما هى لتشهد عليه بالشخصية المنفصمة - نال الاسلام شطرا منها فاصطبخ بهذا التقى،و كانت الاستقامة مما لفحته به الرسالة الجديدة، و كان ميله الى خطوط العدل رشحا لذيذا منها - و نالت القبلية المتأصلة فى فكره و روحه و دمه، كل الشطر الآخر منها. فما استترت مقاصده،و لا صفا العدل بين يديه فى التصرف، فجاءت عروبة قديمة التأدية فى التعبير و راحت ترجح فى مقاعد السلطة و النفوذ، سلطان زعامة على زعامة فى «أرستقراطية» شوهت قديما صفحة العروبة اذ حصرتها فى بداوة مقفلة عن أى انفتاح شريف الاطلالة و عريض الجبين، و ما جاءت الرسالة الكبيرة الا لتجعل هذا الانفتاح كريم الراية فى تعبير انسانى يشهد أن للعروبة وجها قديم الحضور فى الساحات العريضة، و هو انما كان حضورا بناء فى وجود المجتمعات وجودا انسانيا محققا حضارات زها بها صدر العالم القديم - انها حضارة وجودية فى عروبة الأكاديين و البابليين و الأشوريين و الأراميين و الأموريين و الكلدانيين و الكنعانيين و الفينيقيين الأبجديين - و كانت عروبتهم - جميعا - عروبة رسالية منفتحة الحضارة، كما جاءت فى هذا اليوم بالذات رسالة الاسلام العربية الانتماء، لتكون توحيدا، و لتكون نورا و هداية ما قدرت أن تنتسب اليها العروبة الباقية فى أمراضها القبلية، بينما نشرتها العروبة الصحيحة و السليمة هداية للأمم، و راحت تجمعهم تحت رايتها مجتمعات انسانية تتضج رويدا رويدا بصحة العقيدة و نقاوة الاسلام.

انى أشك كثيرا بعروبة عمر بن الخطاب، انها ليست هى العروبة التى أحيا وجودها نبى الاسلام، و بثها انفتاحا على العالم و على أمم الأرض، و بثها وعدا كريما يحرز التباهى و الافتخار، بما ضمنها من حب و انفتاح و سماح - ان

[صفحه ۶۲]

العروبة هذه، هى شوق الانسان الى الاستزادة الدائمة من خزانات الخير، يتصل بها الانسان بالانسان فى الحقول التى تجمع بها مجتمعات الانسان وحدتها، و طمأنينتها، و استقرارها، و كل مثلها المناقبية الحافظة لها الصدر و الوجه و الجبين.

لو أن ابن‌الخطاب هكذا تثقف، لكانت له الوصلة العريضة المندمجة بالامام على،و لكان قلدة ساحة الاسلام بدلا من أن يعزله الى الزاوية و يغلفه بالانفراد لقد قدر على ذلك لأن عروبته المريضة بقبلياتها عى التى كانت تملك الساحة و تسلمه الزمام.

فوق كل ذلك - كان عمر بن الخطاب الداهية الذى لم يشتهر له دهاء - أظنه هو الذى علم عمرا بن العاص، و المغيرة بن شعبة، كيف يكون الدهاء، و علم معاوية بن أبى‌سفيان كيف يغير معالم الخطوط قبل أن يسير عليها،و كيف ينقل التخوم وء الحدود للأشياء تاركا دونها غبارا يشير الى سواها.

سيكون عمر الحسن عشرين حولا- عند انتقال الحكم الى عثمان، و لقد تمكن من مراقبة ابن‌الخطاب كيف أوصل الحكم - بلباقة مكتومة - الى الخط السفيانى حارما منه الخط الهاشمى،و سيبقى له أيضا برج المراقبة مفتوحا على عهد عثمان الذى لم يزه أبدا قمصيه.

نبذة فى الواقع

لقد كانت القبائل فی المبتدأ تنقسم الی خطین کبیرین: العدنانیة و ما یلتف الیها من مضر و ربیعة،و القحطانیة و ما ینتسب الیها من کهلان و حمیر - و کانت البطون و الأفخاذ مشتدة الأواصر بقریش و خزاعة و بنی‌تمیم.... و شیبان و بکر و بنی وائل... و غسان و الأزد و الخزرج... و کلب و تنوخ و قضاعة. ان الحبل طویل لو یطلب الموضوع عرضه. ان هذا الحبل الطویل من القبائل، ما کان ینجدل لعمران الأرض، بل کانت تقطعه الفوضی و عدم تنظیم أسباب العیش، لتتلهی القبائل کلها بتحصیل عیش لم یکون

[صفحه ۶۳]

لیستقیم أوده من دون الاستعانة بالغزو و التعدی،و کان الکل - تقریبا - سواء بسواء. لقد کانت الهجرات الطویلة و المستمرة و القدیمة العهود - وحدها - منجاة من هوان یتذمر منه وجود الانسان. من هنا کان التصاق کل فرد بقبیلته صونا له، یأتیه من تضافر القوی للوقوف بوجه أی تعد یأتیه من قبیلة ثانیة تفتش مثله عن تأمین العیش الذی یشح علی الجمیع. کان للقبیلة الکثیرة العدد ذلک الحظ الأوفر بالغلبة، و تثبیت المکانة، و الحصول علی الزعامة... قریش - مثلا - و هی فخذ من مضر و بطن من عدنان، و کانت سیدة مکة بالنسبة الی عدد فروعها،و منهم بنوطالب الهاشمیون و بنو حرب الأمویون.

و لکن - لا- العدنانیة و لا- القحطانیة، بکونهما جامعتین لمختلف أعداد القبائل و البطون و الأفخاذ، کان لهما أن تحولا دون وقوع صراع مریر ضمن فخذ واحد من أفخاذها،و هذا ما کان یحصل فی قریش بین الهاشمیین الطالبیین و السفیانیین الأمویین، أو بالاختصار بین الهاشمیین و الأمویین.

تلک کانت حالة الانسان فی الجزیرة، لما جاء محمد بن عبدالله الطالبی - الهاشمی - القرشی - المضری - العدنانی، و بسط علی الجزیرة ظل الرسالة المحمدیة التوحیدیة، بحیث لم یعد هنالک لا قحطانیة أو عدنانیة، ولا مضریة أو کهلانیة، و لا هاشمیة أو أمویة - بل وحدة انسانیة منظمة علی أسس من مثل تجمع فی الحق و المعروف و العدل و المساواة - لقد أصبح الفرد امکانیة و انسانیة تدافع عنه الأمة المنتمی الیها، لا- القبیلة المفککة و المشرذمة بعدم التنظیم. ان الانتماء الی واحد هو بدون شک و بلا أی جدال - غیر الانتماء الی ألف قبیلة یوزعها التناحر فی ألف مجال.

لثقد صح کل ذلک، ولقد تحقق علی الأرض، و أصبحت القبیلة اسما للانتماء به الی الأمة، لا مرجعا للانطواء به الی التفرد. لقد کان الجهد منصبا علی تجرید القبیلة من معناها القدیم، و من مفعولها الرجعی البائس، لتکون النتائج خروجا حضاریا تعززه النظرة الواعیة فی تکوین الجماعة و لهما فی الشمل المتین. لقد انتهت الرسالة الی الحیز الجمیل، و کانت الخطط کلها مرسومة

[صفحه ۶۴]

لمتابعة المناهج فی حقول الاتمام و الملاحقة، و رصف الحجارة فی البناء.

و لکن الذی حصل عند اغماضة عین الرسول، لم یکن بالحسبان. لقد کان التصرف بلا رویة، و کان الاسراع باعلان أبی‌بکر الصدیق خلیفة للرسول نذیرا بتقسیم الصف الواحد، و اعادة القبلیة الی حقولها العتیقة - و فعلا قد انقسم الصف بین فئة تؤمن بالتخصیص و التعیین فی أمور الخلافة،و فئة ترفض التخصیص و التعیین، و تسرع - مغتنمة فرصتها - الی تعیین خلیفة یتستر بشرعیة الانتخاب،علی أن تأتی فتسنده المبایعات التی تتألب لها مجموعات القبائل.

ستظهر النتائج و خیمة مع مرور الوقت، ستحتاج کل فئة الی حشد طاقاتها المساندة فی المیدان: سفیانیون أمویون من جهة، ومن ینتمی

الیهم من لفیف القبائل، و طالبیون هاشمیون من جهة ثانیة، و من ینتمی الیهم أیضا من مناصرین... کلهم ستلفهم الساحات فی صراع یلهی الأمة جمعاء عن سیرها المحقق و المجلی.

ماذا یفید تفنید الأخطاء غیر أخذ العبر منها تحرزا من الوقوع بمثلها - وها اننا نتساءل: لماذا اعتنق الاسلام أبوسفیان و ابناه یزید و معاویة، و طلحة و الزبیر و سعد بن عبادة و ابن‌عمه بشیر بن سعد الخزرجیان،و عویم بن ساعدة و معمر بن عدی الأوسیان طالما أن کل واحد منهم لا یرید أن یفقه معنی الاسلام.

لست أدری الآن - بعد مضی عقد و ثلث العقد علی اجتماع السقیفة - کیف اختلط هکذا الحابل بالنابل،و کیف عادت تنتعش القبائل و البطون و الأفخاذ، و راحت من جدید تبنی مواقفها،و تنتقل بالمناصرة و البطون و الأفخاذ، و راحت من جدید تبنی مواقفها، و تنتقل بالمناصرة من ساحة یشح فیها الفیء، الی ساحة أخری تعزر فیها الغنائم!.

و لکن - لماذا التعجب؟ طالما اننا نعرف أن ابدال حرف بحرف فی کلمة، أو حذف حرف منها، یغیر من معالمها،و یقلب الی عکس مداللها. فلنجرب ذلک بابدال میم بهاء من کلمة «ملاک» - أو حذف نون من کلمة «نرجس»... و بئس الملاک یستحیل هلاکا أو شیطانا رجیما - و یا ضوع

[صفحه ۶۵]

النرجس المطیب، یستحیل رجسا یذللنا الی جحیم؟.

و الرسالة الطریة المطروحة علی البساط الکبیر؟ لماذا نحذف حرفا صغیرا من حروف مناهجها، طالما أننا قدسناها،و قدسنا ناهجها، و اجتمعنا بها و لها.ان اتمام لمحة صغیرة لمح بها الرسول الکریم، کان کافیا لحفظ الکلمة الکبیرة المؤلفة من وحدة الصف، و وحدة القبائل، و وحدة الأمة ورصها فی صفها العریض، و ما کانت الطاعة لتضیر و هی فعل ایمان بالرسول،و بصدق ما یقول،و هی - بحد ذاتها - نبل و شهامة، و حب مشبع بنسیان الأحقاد، و جمع لکلمة تستقیم حروفها فی حضن جامعها الحریص علی اتمام معناها.

و لکن الحرف الصغیر هذا قد أسقط من الکلمة، لا بل نقل من تدرجه فی تألیف الکلمة - لقد کانت «الیاء» بعد «الباء» فأزیحت الی ما بعد «اللام» فی کلمة «قبیلة» فرجعت الی معناها القدیم - قبلیة - - و هی الداء، و هی الوباء... فالقبیلة هی أساس تألیف الاجتماع الذی یجمع قبیلة الی قبیلة فی خط النمو و البناء - أما القبلیة فهی أستدعاء القبیلة الی تعصب و صراع ضد قبیلة ثانیة مزاحمة لها فی الجوار.

لقد قرر ابن‌الخطاب نقل حرف من الکلمة... و ابتدأ التحضیر لبنی أمیة ضد بنی‌هاشم، و کیف یکون التحضیر بغیر استدعاء القبائل و أیقاظها من نومتها،ورصها لدعم الصف؟ أین هم بنوقیس، و بنوأسد، و بنوتمیم، و بنوبکر، و بنو تغلب، و بنو تیم الله؟ أین هم الأوسیون و الخزاعیون، و الخزرجیون؟ فلیتفرقوا، و لیختلطوا من جدید و لینطلقوا الی فتح مبین - ان الساحة الیوم مقسومة أمام کل اللاعبین - و الخلافة الآن حلم اللاعبین. لماذا یکون لها أبوبکر و لا یکون لها طلحة أو الزبیر - و کیف یحق لسعد بن عبادة أن یزاحم علیها أبابکر؟ فلیبطش اذا - خالد بن الولید بسعد بن عبادة حتی تنطفیء نار المزاحمة.

و کانت أخیرا لأبی‌بکر، بمعونة حتی زعماء الأنصار الأوسیین و الخزرجیین، شأن أسید بن خضیر،و عویم و بن ساعدة،و معن بن عدی.

[صفحه ۶۶]

هکذا رجعت تنتعش القبلیة، و عادت تبنی المخططات للاستعانة بها مخلوطة أوراقها،و ذلک صبیحة انتقال الحکم الی عثمان بن

عفان.

عثمان بن عفان

لقد ثلث عثمان بن عفان الاثنين اللذين سبقاه، دون أن يكون لعلى فى ما بينهم أكثر من تعلة، لقد تم لهم - بنجاح - افراده و ابعاده. انما الخطة قد عولجت ليكون لها هذا المؤدى. ابتدأت بمحاولة فيها من التصميم بقدر ما فيها من العجم و السبر و الزوز، و كان المصمم - كما لمحنا - عمر بن الخطاب، فرمى الى الساحة أبابكر، وراح يراقب كيف تسير الأحداث فى مجراها الجديد،و يسندها بكل ما هو ناجح فعال.

لقد كانت التقوى تشع من أبىبكر - انها مسحة حلوة مسح بها النهج، و هى هالة تمنطقت بها - منذ اللحظة الأولى - رسالة الاسلام. و هذا هو الحصن الذى تحصنت به الخلافة الأولى فى المحاولة البكر.

و عاد الدور الى ابن‌الخطاب، بموت الشيخ المسن، فقبل المتابعة بعد التجربة التى منعت الخط و ركزته و، وراح من جديد يمتن الأساس، و يفتش له عما يدعمه و يدفعه الى ثبات. و بنهج مدروس أخذ يعين رجاله المنتخبين لملء المراكز الحساسة فى الحكم، و لم يكن ليتساهل مع أى واحد منهم اذا لم يتحل بالتقوى و النظافة والصلاح. و لكن... هنالك وفرة كريمة من هؤلاء الرجال المؤهلين و المتحلين بهذا المعدن الكريم.. كانوا موجودين بين الطالبيين،و لم يكن لعمر أن يشد اليهم، الا نادرا، فى التعيين، وكان للأمويين ميل بارز.

و انتقل الدور الى عثمان بن عفان. لقد كان لابن الخطاب فرس تمكنت من بلوغ الى قصب الرهان و هى تقضم لجامها - أما الفرس التى اعتلاها عثمان ورمى بها الى الساحة المكشوفة، فكانت بلا لجام. ماذا قلت؟ أليس التحديد هذا هو التحديد الذى يشمل سياسة العصر؟ أليس الوصول الى عثمان بن

[صفحه ۶۷]

عفان، هو وصول الى كشف نوايا، ما استترت بها اللباقة حينا، حتى أتاها حائك أرعن، فنشرها قميصا ما بلى خيطه حتى اليوم...! لقد كان الوصول الى عثمان، وصولا الى حد السيف، بين فبيلة و قبيلة، أو بين فخذ و فخذ، أو بين بطن و بطن، من كل قبائل العرب: من عصر الراشدين، الى عصر الأمويين، الى عصر العباسيين، الى عصر الانتقاليين الى الأندلس، و هلم جرا يمينا و شمالا - من مكة، الى يثرب، الى اليمن - الى العراق - الى الشام و فلسطين و مصر - و كل أرجاء المغرب. لقد كان وصول الحكم الى عثمان بداية الشرارة التى أحدثت الحريق المريع، و كانت الأمة جمعاء وقودا له! ليتنى ما أدركت أنه بهذا التحديد كانت مصيبتنا الكبرى،و ليت عمر بن الخطاب قد اقتنع فى تلك اللحظة التاريخية، ان التخصيص أو التعيين كان خشبة الخلاص للأمة، و منجاة للقبائل من تسليمها حبال الشد التى راحت - من شد الى شد تختنق بها.

فلنتبسط قليلا و بايجاز، و لنستعد قراءة الأحداث و نحن نسترق الخطى خلفها، ليكون لنا لمح كيف تنقلت تلك الأحداث، منذ اللحظة التى غاب فيها الرسول، الى الساعة المأفونة التى اشتعلت فيها الثورة على عثمان، و لفته قميصا على صدر الزمان.

- ۲ -

غاب الرسول بعد أن ترك رسالة فعلت فعلها الكبير فى انشاء التوحيد و الاسلام - جمع القبائل كلها فى قبيلة واحدة هى الأمة - ربطها بالأرض و بالتاريخ: الأرض التى هى ركيزة النشوء، وهى أرض الأمة، و مرماها الوسيع فى التفتيش عن كل أود لها فيه سبل العيش، و فيه كل المضامين فى تحقيق التطور و الارتقاء و البلوغ.. والتاريخ الذى هو مداها الطويل فى الزمن، وفيه اثبات الحق فى الوجود، وفيه

حقيقة الاستمرار الموصول بالأرض، وهو سجلها الوحيد الذى تحيا فيه،و تأخذ منه الافادة والعبر.

لقد ترك هذا كله فى عهدة قبضة من الرجال حوله، أفهمهم أنه لم

[صفحه ۶۸]

يتركهم قبل أن أتم لهم دينا هو لهم فى متابعة السير فى الصراط المستقيم، و لقد أوصل اليهم - على مدى وجوده الفصير بنى ظهرانيهم، بالقدوة، والاشارات،و التلميح - كيف يمكن أن تساس الأمة التى أيقظها هو من سباتها الطويل - كيف يمكن التغلب على كل ما هو مرض و تخلف و جوع و عطش و تشتيت و حرمان - لقد لمح لهم كثيرا، قبل أن يغيب، أن الوحدة هى كل العمل، و كل الدين،و كل الايمان - و لمح أن القبلية، لا القبيلة - هى مرض الأمة المزمن - و لمح أن الذى يتأهل لاستلام الادارة بعده، هو الذى ينهج بنهج الرسالة التى جمعت القبائل من صراعاتها و ضغائنها، و انتصرت بعا فى عملية التوحيد - و لمح أن تعيين الخلف هو عملية اراحة الأمة من نزول الى الساحة الكثيرة الغبار، نتيجة التمام القبائل فيها الى مبايعة - و لمح كثيرا الى هذا الخلف: بتهذيب أنيق لمح، بعطف كبير لمح، باشارات بليغة لمح، بعينيه و يديه لمح،و أكثر ما به لمح: استعطافه، و تشوقه، و تمنيه أن يكون لأهل بيته حب كريم يخصصون به، فهم عترته و أهله المطيبون.

- ۳ -

و جاء دور الخليفة الأول - لقد لا حظنا كيف أنه نبت نبتا على الساحة، دون أن يستشار المخصص لها، اكان التخصيص بنص، أم كان باشارات و تلميحات. و لكن المخصص هذا، و الذى هو فعلا- من أهل البيت، وهو الآن رب البيت الذى يدرج فيه فتيان لا يزالان قاصرين - ترك منهمكا بعملية غسل الرسول، بعملية تحضير دفنه، بمؤاساة نفسه الحزينة، بمؤاساة زوجته المفجوعة بموت ابيها...كل شىء كان يشغله عن مراقبة حدث، لم يكن له الآن أن يحسبه يحدث، و لكنه فى هذا الوقت الحرج قد حدث - فى اجتماع السقيفة قد حدث - بحضور اشهر الصحابيين و اشهر الانصار قد حدث... و كانت الامارة مركزا للتنازع، و كان البت سريعا، و كان الفرض اسرع، و كان ابن الخطاب الموجه الاقدر: من الصحابة الامير، و للانصار الوزارة - و تمت قسمة الحكم، و تمت التولية، ولما يتم الدفن بعد،و ها أن أبابكر الصديق هو الخليفة.

[صفحه ۶۹]

لماذا كل هذا؟ ان البداهة التى تلمح، هى التى تحبيب لأن ابن‌الخطاب لم يقتنع ابدا بأن الخلافة تأتى بالتعيين أو التخصيص، بل بالانتخاب - و نسى أنه الآن هو أول من يعين، و نسى أن مجلس الشورى الذى سيشتق التعيين منه هو الذى - فى ما بعد - سيحدثه بالتعيين، و نسى أن المعين هو المطروح فى الساحة للمبايعة، وأن المبايعة هى التى تحرك القبائل و تجدلها بكل عماءاتها و عنعناتها،و قديمها الذى اهترأت به الساحات - و نسى أن الرسالة التى تحب الجماهير - و هى لهم فى كل حال - قد جمعتهم مرة واحدة و لن تستدعيهم الآن الى اثبات وجود لم يستنر بعد - و نسى أن التعيين أو التخصيص أو أى شىء بمبناه - هو حصر المسؤولية بالمسؤول حصرا يرفعه الى مستوى الرسالة، و لهذا يجب أن يكون معدا تمام الاعداد، واعداده هذا يكون كفيلا بنقل الصفات الى معد آخر، يتم به الخط الذى يكون مرسوما للامامة. لم نسمع أن النبى الكريم فصل ذلك أو افرد له شروحا - و لكنه عين له الاهمية بقوله لابنيه من على و فاطمة: «انتما امامان قمتا أم قعدتما» و لقد نسى ابن‌الخطاب أيضا هذا التلميح،و نسى أن المعد الأول لتحمل المسؤولية من بعده - بكل اشارة و كل تلميح - انما هو على بالذات.

اننا الآن نستعرض قناعة ابن‌الخطاب، و لقد نفذ بموجب قناعته، و لهذا شدد، و بكل روية و قصد، على تنحية على عن الخط، لقد اسرع - و ثبت أبابكر فى الخلافة - و بحكم الطبع لم يستشر على.

ثلاث سنوات لم تكتمل، و احس الخليفة الأول بقرب الاجل،فأوصى بالخلافة لعمر بن الخطاب - و هكذا صارت الخلافة رد جميل لمولية - و قبل الوصية ابن‌الخطاب - بلا شورى و بلا انتخاب - بوصية صريحة - اصرح من التعيين. امتد به العمر عشر سنين فى كرسى الخلافة، لقد حقق الجليل فيها، و لقد كان يشعر فى قرارة نفسه أنه نجى الامة من عبودية التعيين و التخصيص، و من حصر الدين والدنيا فى بيت واحد،و هكذا بقيت النبوة لبيت على دون أن يصل الى يمينه صولجان. هل كان يدرى ابن‌الخطاب أن الصولجان لم يكن ليطيب فى يمينه لو أن النبوة التى خرجت من البيت لم تمسحه بقبس كشف له معالم

[صفحه ۷۰]

الطريق؟!... لست اظنه جحد ذلك، ولكن نظرته فى التأسيس لم تمتثل لحقيقة الواقع - واقع الجزيرة آنذاك - فتصرف كأن المجتمع بين يديه هو المؤهل الرافض، وهو السيد المستنير، مع أن النظرة هذه فى اسلوب التخصيص لا تستنكف من مريد معين مصقول، يقوم بالاعباء الجليلة و هو بها بصير.

- ۴ -

و انتقل الحكم بترجيح توصية، الى عثمان بن عفان من عمر بن الخطاب - و ها هى المواجهة - لم يتورع ابن‌عفان - ورث الحكم - صحيح، كأن الحكم وراثة وصلت اليه. لهذا لم يتورع، وراح يستبد، وراح يؤسس، وراح يدعم الاساس. هل من أمل بعد لأهل البيت فى الوصول الى كرسى حكم هو الآن - عثمان متربع فيه؟ فليقض نهائيا على أى أمل - من هذا النوع - يحتل به بنوهاشم عقر الدار. أن الدار و ما فيها لبنى عبد شمس، لبنى سفيان، لبنى حرب، لبنى أمية، اليس عثمان الآن هو السليل فى الركيزة؟ أية ضغينة فى الامس لا يكون لها اليوم ايتار قوس؟ أنه يرى الآن أن سلفيه فى الحكم لم يتصرفا التصرف الكافى بالقضاء المبرم على آمال على بالوصول، أما هو - عثمان - فبكل حزم سيتصرف.

حتى الشوارع و الازقة سينظفها من اتباع على، اكان فى مكة، أم فى المدينة، أم فى اليمن، أم فى الكوفة و البصرة، أم فى مصر. أما الشام - بنوع خاص - فستكون ركيزة متينة للانطلاق و القضاء على من تحدثه نفسه بالوقوف بوجه بنى امية - هنالك معاوية، لقد زرعه ابن‌الخطاب حاكما على الشام، أنه هناك - فليرسخ له الكرسى - انه حاكم الشام فلتوسع له الادارة و الارض - فلتكن موسعة بالاردن - فليعزل عن فلسطين عبدالرحمن بن علقمة و لتنضم الى معاوية و لتنسحب حمص من عيمر بن سعد الانصارى، و لتضم أيضا الى معاوية - و ليغرق معاوية بالحرير و الخز و الديباج - و ألم يصفه عمر - من قبل: بأنه كسرى العرب - و سيكون معاوية حقيقة، كسرى العرب، وعلى يديه سيتم القضاء على كل أمل لعلى،و به سيورق كل عز لبنى أمية - و ستأتيه المساندة: من هنا

[صفحه ۷۱]

و هناك ستأتيه المساندات: سيعزل عن الكوفة سعد بن أبى‌وقاص،و يولى مكانه وليد بن عقبة، و ستكون الكوفة بستان بنى قريش - و قريش الآن هى كل بنى أمية - أما وليد بن عقبة، فليكن سكيرا، فليكن خليعا - اليس بمثله يكون التحكم المذل فى رقاب الناس! فليتغذ على و اناس على، من المثل التى يباهون بها، وليكن - بالمقابل - سواد الكوفة طعمة لبنى حرب...

أما عبدالله بن ابى‌سرح - أخوة بالرضاعة - و الذى هدر دمه النبى، لأنه كذاب و دجال - فليتول الآن حقول مصر، مصر البقرة الحلوب

حسبما وصفها – فی ما بعد – عمرو بن العاص.

أما رجال علی – الناس الطیبون – الاتقیاء الطاهرون – فلعذاب جهنم، لأی عذاب من عذابات عثمان معرضون، أنهم الآن المضطهدون... أی معنی لأبی‌ذر الغفاری؟فلیشرد أبوذر، و لینف الی الجحیم الربذة أبوذر، و لیمت فی منفاه أبوذر...و لینف أیضا عمار بن یاسر – الیس ابن‌یاسر من طینة أبی‌ذر؟؟.

هذا قلیل من کثیر مما ارتجل عثمان و هو فی کرسی الخلافة، فی سبیل توجیه الحکم و حصره فی بنی‌أمیة. أن معاویة – فی نظره – هو رجل الساعة، و هو المؤهل الوحید لاستلام الزعامة، و استلام الامارة، و استلام الملک.

و لو أن ثورة قد تولدت – فعلا- من عنجهیة عثمان، فقضت علی عثمان! الا- أنها وصمة تلوث بها کاهل خلافة لیس من حقها أن تخطیء و تجنی علی کل المؤمنین، کما و أن المغانم التی جناها عثمان، و منها غزو آذربایجان و ارمینیا و طبرستان. وفتح جزیرة قبرص التی هی امتداد الارض علی الشاطیء الذی سکنه الجدود الممتدون من الجزیرة – بنو کنعان – قبرص التی کان یسمع من حمص صیاح دیکتها و نباح کلابها.

اقول – أن هذه المغانم الثمینة بتوسیع نشاطات الامة، و لملمة اطرافها. بعضها الی البعض الآخر، و لم تواز خسارة جسیمة حلت – و ستحل علی ابلغ –

[صفحه ۷۲]

بالامة، و تؤخرها عن بلوغ کل مجد عظیم، لو أن اللحمة الرائعة بقیت لها، و لم تنفسخ الی عدة معسکرات تتناحر جمیعها تناحرا عمیقا و مبیدا. أن صراعا أوصل معاویة الأموی الی کرسی الملک، زعزع اللحمة و فسخ الأمة بین الشام و العراق و الجزیرة، و ترکها اشلاء تتلهی باشلاء، وصدعها تصدیعا، و کان لها من کل قبیلة همجیة جدیدة تضرم النار و توهجها بکبریت منها و بوحل منها أیضا یتلازج ثم ینشف الی سحب من غبار، و ستبقی الحزازات و الضغائن تتغذی بمواالیدها و فصلانها کما تتغذی مواالید العناکاب باماتها. کأنها – هذه الامات – هی الصید الجدید الذی وقع فی احبولة النسیج، حتی یدول عصر أموی و یولد عصر عباسی فیشویه و یزدرده امویا، ثم یلتوی علی ذاته فیلتهمها التهاما ترکیا – تتریا – مغولیا اصفرا! یا للمسافات تلتهمها ثوانیها القارضة، و یا للاستعدادات النفسیة یغرقها اللاوعی فی فوضاها.

اصبحت الآن أیها الحسن – وعثمان بن عفان أمام مقاضاه الزمان – بعمر یتجاوز الثلاثین أنه نضجک أیها السید الکریم،و أنه لمحک الذی ستأخذ عنه – أفلست الآن فی الساحة المعکورة؟! سینزل الیها أبوک – ایکون لک أن تساند خطواته فی تفتیشها عن الطریق؟!

غمزة

لست اظنه مات – عثمان بن عفان – ان شرارة تلقطت بقمیصه، سیکون منها لقاح نار تجعل یاسا کل اخضر! ان الشرارة الآن قد تناولتها الشام، لتبنی بها ثأرا لعثمان – لقد عاش الآن عثمان فی الشام – ألیس معاویة المزروع فیها، هو المنتظر موعدا موقوتا و مخبؤا فی قمیص؟!.

انها الساعة الذهبیة المعلقة فی جداز القبة الحمراء – بعذا الهباء ستبقی تدق ثوانیها فی تألیف الوقت المرهون و المصبوغ بالدهاء.

ان الحکم هو حلیة اللازورد الصافی و الشفاف – الضارب الی حمرة الدم المنتوف من مهجة الملک و عرنین المجد – و هو فطیرة اللوزینج التی تفترشها مرقوقة

[صفحه ۷۳]

موائد الملوک استدرارا للعاب یسیل علی الشفاه المدهونة بالقرمز

قتل عثمان لیعیش طویلا فی بال معاویـة بن ابی‌سـفیان بن حرب بن أمیـة من أجل احیاء ثأر مدرع ببغض للأقربین بنی‌هاشم - فلتجتمع القبائل المسانـدة، من کل حدب و صوب - و لتوجه کلها - لا لتحریر الشام، و ربطها بمداها المصدد الی أرض الرافدین - بل لشـحن الصدور بالاحقاد التی عاشت بها طویلا - قبل محمد - قبائل الیمن، و قبائل الحجاز.

الامام علی - المنحی

العفو منک أیها االامام، ها هو البحث فی موضوع هـذا الکتاب، قـد خطا خطوات طویلة حتی الآن - و ان قلقة - و هو یرمی باسـمک، هنا و هناک، علی شح و تقتیر، کأن اسـمک هکذا یبنی بالحروف البسـیطة المهملة. لا یا سـیدی - ان اسمک لیحاط بهالة یبهو بها، و ان الوصول الیک هو الوصول الی لب الموضوع الذی یقرأه الآن قلم یبحث عن حقیقة الصراع فی وجود الانسان.

أنت من القطع النادر أیها السـید المهیب، و أنت شوق الله فی الانسان، و شوق الوجود فی الانسان، و شوق الـدساتیر الی اختصارها فی المثل المعباة بقیمـة الحیاة فی وجود الانسان. فلنأخـذ الآن الیک حدیثنا و هو یفسـر - بک عنک - حقیقة ما لمسـته الأجیال فیک من روعة هی لک دائما فی صلابة مجتمع الانسان.

جل ما یهمنا أن نعرف من حـدودک أنک ربیت فی بیت الرسول الکریم - لیس المهم أن نحدد أنه اجتذبک الیه و هو بعمر الخمس و العشـرین أو أکثر، و أنت بعمر الأربع أو أقل، المهم أنه تناولک الی حضـنه و هو فی حالة من التأمل و الاسـتغراق ترفعة الی مسـتوی آخر، عزیز الصـنو فی وجود الانسان. انه الغواص الکبیر فی أسرار الکون و الوجود، و هو اللماح الأکبر فی استکشاف الطوایا المخبوءة فی العین، و فی الاسـاریر المتلألئة فی وجه الانسـان - لاـ شـک أنه قرأ السـر الـذی هو فیـک، جوالا فی عینک، و محفورا علی لوحة جبینک،

[صفحه ۷۴]

فامتشـقک الیه حساما تحسن جلوته، و یطیب حده - لا لیضـرب الهامات، بل لیقیم به حدا لأی شعاع یستهیم به الضوء لمحو العتمات.

الم تکن مهمة محمد مبنیة علی استطلاع الأغوار من مخباتها المکنونة فی ضمیر الحق، و المطویة فی وجود الانسان؟

والجزیرة؟ و انسان الجزیرة؟ و أرضـها الممدودة علی فدافد و حرات و احقاف؟ و تاریخها المسحوب من اطراف الزمان، کأنه شلو من الساعات، لا تلتحم ثوانیها علی تألیف شـیء من الزمان و ربطه بالمکان! ألم یکن کل ذلک من همه فی کیفیـة خلق الانسان الجدیـد، تنـداح به الجزیرة - علی فهم و ادراک - و تلم به شـعثها، و تؤجـج به شوقها، و تعبـد خطوط السـیر بین فدفـد و فدفد، أو بین واحة و واحة، حتی تتم المسیرة علی الدروب الموصلة الی العزة و المنعة والکرامة.

ما من شک فی ذلک، لیکون انتقاء محمـد فتی یربیه فی کنفه، ملحوظا فیه القصـد الکبیر فی مسانـدة اخراج الرسالـة التی یسـتعد الآن لتبلیغهـا. ان الرسالـة هـذه لتحتـاج الی نیرین، عزیزین فی الصـفات، و متینین فی الترکیب النفسـی الممتـاز، اکثر ممـا تحتاج الی أقرباء موصولین برابطة الرحم و الدم - و ان صادف أن الفتی هو مربوط أیضا بصـلة کهذه، فهو ابن عم. لهذین السببین، ملتقیین علی صدفة، ثم علی الـتزام، نشـأ الفـتی فی الحضن الکریم تحت عین زوجـة المربی - خدیجـة الطـاهرة الـذیل - مع اخوات أربع درجن فی البیت الواحد، لتکون صغراهن -فاطمة - رفیقة بالتربیة، و رفیقة بالزواج، یرتبط بها علی ارتباطا منخوبا و مقررا فی خدمة الهدف الذی تعین،

الآن رسالـة. ان فاطمـة، و قـد سـبق التلميـح عنها، هى التى لفها اللمـح ذاته من حيث قراءة عينها، و تلمس أسارير تطفو على وجهها، و جبينها، و صـدغيها و لون أنوثـة فيها غائصـة فى براءة فريـدة النوع و شـهية النكهـة و المذاق. ان فاطمة هذه لم تغرق فى بال ابيها لأنها فلـذة من كبـده، بل لأنها سـر ولادة فى كينونته المربوطـة بالاشواق -انها النضـج فى معنى الأمويـة المطهرة التى يجب أن تكون رحما قدسـية الانجـاب - هكـذا لمحها أبوها - و هكـذا تبناها منفردة من بين أخواتها، لتكون له وحـده منجبـة لميراث مضـموم الى الجزيرة المشتاقة الى رسالة لفتها و تلفها فى المكان و الزمان.

[صفحه ۷۵]

- ۲ -

أتكون هـذه كلهـا حـدود على؟ انها حـدوده، ولكن التفسير هو المضـفى حـدودا اخرى تفيضه على الحـدود الأساس، و تنتقل به الى مقاييس تجـد حـدودا لها فى كل زمان يأتى متزنا بالحق، و مخفورا بالصـفات و المثل، و موشوما بالجمال، من هنا فلنسأل: هل صـدق اللمح - لمح النبى؟ و متى و كيف بدأ اللمح يصدق؟

دون أن يعتمـد التسـلسل فى الأحـداث يمكن القول: بدأ على يصدق لمح النبى فيه منذ اللحظة التى كان ينسـحب فيها محمد الى غار حراء - كيف كـان يراقب الانسـحاب، و كيف كـان يتـأمله و يفهمه،و ينحنى أمـام جلالـ معنـاه - اظنه كان فى التاسـعة من عمره - و بالتدريج، مع اعلان البعث، و مع العزم الأكيد على التبليغ، و مع صعوبة التبليغ، و مجابهة المبلغين الرافضين... كان هو أول الفاهمين، و أول المـدركين و المـذعنين، و أول المبشـرين المساعـدين، و أول المتحملين، و المـدافعين و المتلقين صـدود المتصـدين... و كـان الهروب الى المخـابىء حول مكـة، و كـانت الهجرات الى الحبشـة و الى يثرب... و مـا ونى يتحمل مثل هـذه الضـغوط كلها، و بالرفقة الملازمة دون أى انقطاع، و كان الاندفاع الى ساحات الصـراع، و كان امتشاق الحسام المسنون الشفرة على مشحذ، أو المسنون اللسان على عزم، و منطـق، و حجـة و، و بيـان... لقـد كـان لهـا كلهـا عزم الفـتى - و من معركـة الى معركـة، و من خنـدق محفور الى سـاحة مكشوفـة، تم النصـر، ثم ابلاغ الرسالـة، وتمت قراءة القرآن، و كان لها جميعها: بطلا صـنديدا، و محققا مجيدا، و قارئا مسـتجيبا - مما جعله شـريكا فى التحقيق، و بليغا مسـلوخ النهـج من حقيقـة النهـج، بما قـدمه - بـدوره - من آيات بينات، كانت تظهر تباعا فى كلامه الذى انجمع منه فكره فى نهج‌البلاغة.

تلك هى الملامح التى لمحها محمد، وحقق على صدقها فيه... و ما انتهى اللمح،بل جاءت موصولة به روافد أخرى وسعتها عين النبى، و جاءت نهجا مكملا لمناهجه الموصولة بدفع الرسالة أبدا الى الامام. فهذا الرجل على

[صفحه ۷۶]

- البليغ النهـج، و الصادق السـيرة والقصـد، و البعيد العين فى الرأى و التبصـر، و الملم بأسـرار النفس، و معانى الوجود، و الخاشع أمام مهابة الخالق، و المدرك كمال الصـفات، و المبنى من صـفوة الحق - انما هو الانسان الأقرب من ردهات الكمال التى يلزم أن يتدرج اليها الانسان، وصولا الى المرتبـة الجليلـة التى يجب أن يتأسـس عليها و بها مجتمع الانسان. تقـديرا من النبى لعلى، و أثابـة له، قال: أنا مدينـة العلم و على بابها - على منى و أنا من على - من أحب عليا فقـد احبنى، و من أبغضه فقـد أبغضـنى - اللهم وال من والاه و عاد من عاداه - فاطمة بضعة منى، أهل بيتى هم المطهرون - ابناى هذان هما والدى، و هما أمامان قاما أم قعدا.

ان يكن هـذا الكلام قـد ورد على لسان الرسول، فما اصـدقه بحق على، و ما أمرأه على قبله - و ان لك يكن قـد قيل، فما احق عليا به

لأن يخصص له... و لقد خصص له، و حتى و ان لم يرد باشرات اللسان، فبكل آيات المعانى والبيان... أى رجل مثل على، مثل سيفه، مثل صدره، مثل صدقه، مثل نبله:، مثل حدبه الوسيع، و مثل نهجه البليغ، يمكن أن يرث الجهد، و يمتد بالرسالة التى لم تأت الدهور الطويلة بمثلها فى خدمة الانسان – هذا الانسان الغافى و الفاقد كثيرا من قيمة الانسان؟!

– ۳ –

هكذا كانت مصداقية اللمح، و من هنا كانت موصولة بهذا اللمح روافد أخرى، انما هى – هذه الروافد – القاء مهمة تتميم الرسالة، و متابعة الاهتمام بها –للقيام على صيانتها، و دفع استمرارها – على الكاهل المتين الذى اكتشف الرسول حقيقتة، منذ أن وقعت عليه عينه الكشافة ان القاء المهمة على كاهل هذا الفرد، معناه تسليم هذا الفرد وكالة عامة تنقل اليه جميع الصلاحيات – و صلاحية النبى الكريم فى الرسالة هى أنه جامعها، و مسؤول عنها و صاحب السلطتين فيها: السلطة التشريعية و السلطة التنفيذية. لقد نزل التشريع فى القرآن، أما التنفيذ الذى هو الآن يجريه، فعلى هذا الكاهل الجديد أن يجريه

[صفحه ۷۷]

من بعده، بدعامة يقدمها له هذا التعيين أو التخصيص الناتج من صدق اللمح، و من حقيقة التبصر، و بعد النظر فى القضايا المصيرية التى هى من وزن الرسالة التى اصابت فى جمع أمة عظيمة هجع بها الدهر هجعة طويلة حتى أفاقت، و لكن جفنها لايزال مقطوبا بأثقال النعاس.

ان التعيين هذا هو – فى الأساس – بمعنى تشكيل الحكم و حصره بواحد، دون الالتجاء – فيما بعد – الى عمليات استشارية انتخابية، و تستيقظ فيها القبلية فى القبائل التى تتألف منها الجزيرة العربية، كما و أن حصر الحكم و ربطه – مسبقا – بواحد، و هو أيضا خطير الدلائل و النتائج، فكما أن الحاضر قد ارتبط به، فان الغد كذلك قد اتصل اليه الربط – و المعنى الجليل و الخطير فى ذلك هو تثبيت نظام مكفوف بالرسالة، و من صلب الرسالة، و من نهج الرسالة و صوابيتها فى الضبط، من حيث يكون المستنير بها معصوما – ضمنا – بها، و تلك هى الامامة التى تتصل بها – على التوالى – كل امامة تنتقل اليها هكذا كل الصفات، متوارثة فى الخط الذى ابتدأ و لا ينتهى الا بنضج المجتمع الذى توحده المعرفة، و تشرق به الصفات.

انها أحلام النبى العظيم فى تكوين الأمة العظمية، و التبصر لها بالغد الكبير الذى ستطاله الرسالة بالتحقيق. أن التعيين هذا، و المنوه عنه، هو – اذا – تشكيل الحكم و حصره بالامامة. انه بالاساس، دينى – أى من لون الرسالة – و دنيوى – أى من لون الاهتمام بأمور الأمة، و طرق معيشتها، و تحصيل أرزاقها – والدين و الدنيا هما فى نظام الامامة موحدا الربط – فالدين يقدم الايمان معززا بالمثل التى تبنى الاخلاق، و الدنيا هى الحصول على الزغيف، و كيفية اكله بنظافة العين،و الكلف، و القلب، و الشفة، و اللسان.

– ۴ –

كل ذلك كان من لمح النبى، و من تبصر النبى، و من تأكيده على غد لابد أن يأتى اذ تتطبق له الأحكام المصيبة و الصيرورات الواسعة العين، و الناضجة

[صفحه ۷۸]

الطموح، الصادقة اللب – و كلها مطوية عليها الرسالة، و لقد مرت كلها باللمح على عينه.

و مات الرسول – فلنقل انه مات – و لكن الكفر الأصيل لا يموت، فهو حى فى المجتمع، يتوارثه عن انسان، أو فلنلون القول: امامة عن

امامة، فى توارث الصفات حين تصير فاعلة، والتى تستمر بها - فى الرباط مجتمعات الانسان. مات الرسول - اذا - و جاء دور تطبيق لمحة من لمحاته، فيما يختص بالخلافة المربوطة أصلا و شمولا بالرسالة.

لم يلمح اجتماع السقيفة كل ما لمحه الرسول، أو لمحت اليه كلماته و اشاراته - و التجأ الى تصرف سريع يعطيه حقا تقليديا فى انتخاب الرئاسة. لقد كان الاجتماع هذا مسوقا بشعور ضمنى - لم يفصح عنه الا بيان خفيف الاشارة - بأن القبول بخلافة على هو تكريس الخلافة باهل البيت وحدهم، و هى من حق جمهور القبائل، دون قيد أو شرط. فكما أن الرسالة هى للجمهور، فمن حق الجمهور أن يتصرف بها، ويعين لها القائد، من اجماعه عليه - هكذا كان لهم الحق المبرر فى أن يتصرفوا بابعادها عن دائرة الاحتكار أما أن يدرسوا فلسفة انظمة الحكم - أما أن ينظروا الى الرسالة الجديدة كيف يجب أن يتهيأ لها الحكم الذى يديرها و يرعاها فى مجالات الصيانة والتنفيذ - فهذا ما لم يرد بتاتا فى التعليل و التنفيذ.

لقد كان للقبيلة نظام و دستور - رئيسها هو المتقدم بالسن - انها رئاسة السن - والقبائل عديدة فى الجزيرة، و الرؤساء كذلك هم عديدون، وكان نظام القبيلة - كأنه ملوكى - مستبدا بربط الأفراد بالسيد الأول ربطا مستبعدا، و كان المجتمع كله وحدات عديدة لا يلمها التجمهر بقدر ما يفسخها التناحر، والتباغض، و التقاتل - بحيث يكون الفرد امكانية ضئيلة، يرمى بها الى الساحة رمى الحصاة، تحقيقا لغزو فيه من التعدى ما يزيد حقدا على حقد، و ضغينة الى ضغينة - و كلها عوامل تفتيت فى المجتمع الذى تبنيه وحدته الواعية و الراشدة ان نظام رئاسة السن قدم للجزيرة أبابكر الصديق، و لم يقدم له

[صفحه ۷۹]

الامام على، تلبية للنظام الجديد الذى حلم به الرسول نظام الامامة - فنظام الامامة - فى حلم النبى، و فى اقتراحه تقديمه الى التظهير - و هو غير النظام الملكى المستبد، وغير نظام رئاسة السن الذى ترفضه الرسالة - انما هو نظام مؤسس على اختيار الصفات الملبية للرئاسة الجامعة مصلحة الأمة - لقد عينت الرسالة الجديدة مصلحة الأمة و كذلك قد اقترحت لها نظاما جديدا من صلبها، و من لحمتها، من معدنها، على أن تكون الصفات المتوارثة هى لها دائما فى المجال. و بحكم الطبع - فان الامامة تسقط من تلقاء ذاتها، اذ تخسر ركيزتها من الصفات المخزونة لها فى الرسالة، و التى منها يأتى المدد.- ۵ -

أتكون ارادة المجتمع هى التى نحت عليا عن الحكم؟ ولم تقبل به فى مركز القيادة؟ و لماذا لا نسلم بالحقيقة، طالما انها حصلت على الأرض؟ و ان الرسالة أيضا - و قد الغت رئاسة السن، كنظام بائد، كان يفرق، و أبدا لم يجمع - أقامت لها رئيسا الى الأبد، و هو النبى الكريم، و مشت به الى الزعامة المقدسة، و الى سن الدستور المحفور على لوحة الزمان. ان هذه الرسالة بالذات، كثيرا ما كان يعصاها المجتمع، من حين الى حين، لأنها لم تفعل فيه بعد، تمام الفعل، انها له - ذا تفعل - و ليست له بعدم الفهم - من هنا: ان المجتمع هو المقرر - و هو القابل - و هو الرافض.

الامام على - الخليفة

لم تصل اليك امامة، و وصلت اليك خلافة - كأنها انتظرتك لتصبح أهلا لها بالسن - يا ابن الستين... لقد ذابت دعابتك، و اندغمت الآن بنضج الكهولة، و استسلمت فيك مهابة العمر خضوعا أمام سلطات المبايعات، تأتيك من هنا و هناك، و هى تطلبك الى حقيقة الانتداب لتسلم أمور المسلمين. هنيئا

[صفحه ۸۰]

للبصرة، و هنيئا للكوفة تستقلان بك بطلا من أبطال التوحيد، و قطبا من أقطاب الجهاد، و سيفا من السيوف المفلولة التى أصبحت تكتفى بالنصل دلالة على أنه عتيق هو السيف، ما فل الا من شدة الثبت فى ساحات القراع، لا من روعة النصر فى حلبات الصراع!

يا لها من خلافة وصلت اليك من طرف الميدان، بعد خمس و عشرين حجة، بعد ثلاث محطات مهترئة بالمبايعات لرؤساء السن، تحت زحمة القبائل المتسابقة الى اعتلاء ذوات الخفاف، مجرورين من أطراف الفدافد و الأحقاف، لطرح مبايعات ليس فيها غير رجوع الى الوراء: من بنى أسد - رجوعا الى بنى غيان «كانت قبيلة غيان فى الجاهلية و لما اسملت أبدل الاسم لها البنى الكريم، فصارت تعرف ببنى أسد» - و من عبدالله - رجوعا الى عبد العزى - و من راشد - رجوعا الى غوى.

لقد أعددت للامامة أيها السيد، للنظام الجديد الذى اقترحته الرسالة الجديدة - لقد بايعتك الرسالة كلها فى الامامة: أكانت ناطقة فى غدير خم، أم معلنة باللمح و الاشارات، لقد بايعتك الرسالة من خلف الفدافد و الحرات، من أبعد منها - من قلب الواحات الممتدة من خلف سيناء، من خلف القدس، و تلال اريحا، و سهول بيسان - من خلف غوطة الشام، و من كل بستان حول بردى، و من كل بسطة أرض يرويها هنا دجلة و الفرات، و يرويها هناك نيل مصر - من كل أرض وصل اليها من قبل الزمان مد القبائل، مما مهد اليوم للرسالة أن تمد اليها فعلها و زخمها. لقد أعدتك الرسالة الجديدة للمهمة الممتازة، وصولا اليها، بفعل الوصاية، لا بمماحكات المبايعة... فكيف عادت و وصلت اليك بهذا الشكل، هذه الخلافة؟!

بحكم الطبع، أنت لم تردها ملوثة بدم عثمان، و لقد اوجزت ذلك بالوصف فى خطبتك «الشقشقية» فلنستمع قليلا اليك: «و انه ليعلم أبوبكر - أن محلى منها محل القطب من الرحى، ينحدر عنى السيل، ولا يرقى الى الطير، فسدلت دونها ثوبا، وطويت عنها كشحا،و طفقت ارتئى بين أن أصول بيد

[صفحه ۸۱]

جذاء، أو أصبر على طخية عمياء يهرم فيها الكبير، و يشيب فيها الصغير و يكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه، فرأيت أن الصبر على هاتا احجى، فصبرت و فى العين قذى، و فى الحلق شجى ارى تراثى نهبا، حتى مضى الأول لسبيله فادلى بها الى فلان بعده (ابن‌الخطاب) فصبرت على طول المدة و شدة المحنة، حتى اذا مضى لسبيله، جعلها فى جماعة زعم انى أحدهم فياالله و للشورى متى اعترض الريب فى مع الأول منهم، حتى صرت اقرن الى هذه النظائر!».

أما الى ابن‌عفان، فقد وجهت القول: «الى أن انتكث فتله واجهز عليه عمله، فما راعنى الا و الناس الى كعرف الضبع.... فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة «أى أصحاب الجمل» و مرقت أخرى (أى أصحاب النهروان) و قسط آخرون (أى جار عليه أصحاب صفين).

هكذا وصلت اليك مشقوقة الثوب، مقرحة، منهوكة، مبعثرة - لا كوفتها مكوفة بحقيقة الجهد، و لا بصرتها مجموعة تحت عين البصيرة، و لا- مكة فيها الا- مفتشة عن كل ذرة غبار تعيد بها عجن اصنامها، و لا يثرب لها، تصغى الى الكلمة تهبط من فوق منبر المسجد، ولا دجلة و الفرات الا ليغسلا الأرض من دم، بدلا من أن يكون عطر الأرض و ملحها، أصبح زنخا يمجه الذوق، و الأنف، و العقل،و اللب، و كل بصيرة فى الانسان.

- ۲ -

ماذا نقول لك أيها الامام، أو فلنرضخ معك للواقع و نقول، أيها الخليفة؟ لقد الحت عليك جمهرة من القبائل أن تتسلم الزمام و لو مدبوغا بهذا العكر، ولو مهزوما بمبايعات مريضة مردودة الى وباء - قبلت بعد تردد، و تلكؤ، و طول تصبر، وامعان روية - و لكنك قبلت - لأن القبول هو فرض من فروض الواقع - ان المجتمع هو الذى يفرض، مخطئا يفرض، و مصيبا يفرض، واعيا يفرض - و مغفلا

يفرض...! و المجتمع هو ارتباط الفرد فيه على الصيرورة المشتركة و التى لا مناص من الدخول فيها، و القبول بها، ثم العمل

[صفحه ۸۲]

على تزكيتها أو تصويبها بقدر الامكان. هذا - أولا و آخرا - كل ما حداك على القبول برمى ذاتك - و لو بعد لأى الى الميدان.
لقد كنت المتأفف، و لكنك نزلت. و لقد كنت المستنكف، و لكنك أيضا نزلت، ولكن نزولك لم يعن أنك قبلت أكثر مما عنى انك رحت الى المحاولة، محاولة رد الاعتبار الى المركز الكبير، بجعله يعود رويدا رويدا الى مجراه اللامح المسنود بنظافة الايمان و التقوى، و العدالة، و المساواة - و كلها مزاياك -اننا الآن، و اليوم، و غدا، نثق بك، لأنها مزاياك - لأن كل آية من آياتك أنت، فى نهج‌البلاغة، هى شرح لمزاياك، وهى - ان تكن بليغة - فلأن الرسالة هى كل ثقافتها، فهى - بالنسبة الى القرآن الكريم - أبعاض منه، نقول ذلك انعاشا لذكرى ذلك الذى أوصى لك بالخلافة فى غدير خم، و اغدق عليك رضوان ربه و ربك، و لفك اليه بأخوة جمعت كل القبائل - فيما بعد - بوحدة الاسلام، و وحدة المجتمع، و وحدة المصير.
و ابتدأت المحاولة برفض كل مساومة تؤخر الرسالة عن مسيرتها القويمة. فهنالك الشام - و الشام مهبط لطيف الظل، و عليل النسمات، وكريم العطاء فى سندس زاهى اللون على ينع الثمار - انها مهبط من المهابط المحببة على قلوب الممتدين من أصلاب الجزيرة العربية، و الفائضين عن امكاناتها الاستيعابية، فاعتمدوا الانسياب متنفسا لهم عبر اجيال و اجيال، لم يحصرها زمان، من قبل أن يتلقط التاريخ بحرف يضبط التدوين، و يؤرخ للحوادث أو يفسرها و يعطيها معناها الأصيل، من قبل أن يأتى مؤخرا الأراميون - مثلا - و يشاركوا فى عمارة الأرض و بناء المدن، و اعطاء دمشق اسمها الذى تعيش به الى الآن. ان دمشق هذه، هذه الشام الكريمة الحدب، و الموصولة المكان بالمكان، والزمان بالزمان، هى ملعب جديد يعلب عليه معاوية - على هواه - لعبة دهياء. لهذا حذفته عن كرسى الامارة، و دعوته من جديد الى الانتساب، الى ترك بنى قيس، و بنى كلب، و بنى‌غسان، يعودون الى وحدة الصف مع بنى كهلان، و بنى‌الأزد، و بنى‌لخم، ليبقى المكان - مكان العراق و مكان الشام - موصول

[صفحه ۸۳]

الهواء بالهواء و الرذاذ بالرذاذ، و القبيلة بالقبيلة التى سحبت من عمق غفلات الزمان، لتشارك فى بناء المكان، لا لتعمل على هدر الزمان و جعله رغوة من رغوات التناحر، يموت بها الحق، و ينهدر الدم، لنصبغ به قطعة من قماش نتقلدها برفيرا كاذبا نغطى به ابداننا، و ستائر قصورنا، و كراسينا التى نجلس عليها و بيدنا خاتم الملك الأحمر، و قصبة الصولجان!
و لكن معاوية - و الدنيا أصبحت فى عينه، و قميص عثمان فى يمينه، و عطاءات الأرض فى خزائنه و فوق موائده - لم يعتبر نصحك أيها الخليفة المجموع من خلف نصف قرن من الاهمال المدروس، و النسيان المصطنع، الا هراء، و ان الدنيا هى التى تخلق ذاتها، و تصبغ عينها بلون قلبها و زندها و دهائها - ثم دعاك - هو معاوية بدوره - الى غسل قدميك قبل أن تمشى اليه، و عليهما غبار من الصحراء التى انسحبت منها، و هو غبار لا ينبت خصبا. و كانت صفين حدا فاصلا بين شوق وشوق، وبين معراج و معراج، و بين توحيد و توحيد - و كانت امتدادا لحرب الجمل،و اشتقاقا لمعارك النهروان.
لم يخطر ببالى أن أبحث عن معنى صفين فى تركيبها اللغوى البيانى - و لكنى الآن اتساءل: هل هى مثنى «صف»، و جاءت بها سهولة اللفظ بحالة النصب أو الجر؟! يا لذل التفكهة فى التعليل، و يا لتعس الفرات ينقسم دفقه المعطاء الى جدولين قاحلين بالخصومة المخبوطة بحوامض الدم، و برواسب منقولة مع الأجيال، حملها معهم المتجولون، مربوطة بالاوتاد و حبال الاطناب!! يا للفرات يضيع

مجراه عن حقیقة الورد، و یتحول و لغا للعطاش!

یا کبدی علی الکوفة و البصرة تشویمها معرکة جانبیة زرعها فن الصراع فی الخاصرة، کأنها خراج اصطناعی ینشبه النطاسی البارع فی فخذ المریض لیحول أوهام الحمی الی المکان الاخر - یا لدهاء معاویة و عمرو بن العاص، یخففان الضغط عن صفین الی عمق الکوفة و البصرة، حیث تقاتل عائشة التی هی الآن بنت أبی‌بکر الصدیق لا أم جمیع المؤمنین.

[صفحه ۸۴]

انها معرکة الجمل، جمل عائشة المتعلقة ببنی تیم - طلحة هو ابن‌عمها - لماذا لا تکون الخلافة لا بن عمها؟ ان انتصار ابن‌أبی‌طالب یثبت الخلافة فی البیت الهاشمی، و یوقع أباها - الذی ترک الدنیا و الخلافة علی خط سیاسی معین - فی ذل الخیبة و ذل الانکسار - و ها هی القبائل فی الصبرة تستمیت فی المناصرة، وتضرب طوقا من سیوف مشرعة فوق جمال و نوق متلعة الاعناق، و لصیانة «عسکر» جمل أم‌المؤمنین - یا لنخوة الرجال من بنی ضبة، و الأزد، و بنی ناجیة - انهم من أبناء العشیرة، وهل یناصر الأهل الا الأهل؟ و هی تنادی القبائل الا سحب الغبار؟ و هل تکون المبایعات لغیر هذه الاثارة!

لم تنته معرکة الجمل بعرقبة «عسکر» و جندلة طلحة و الزبیر، و أسر عائشة ثم بفک أسارها. و لم یکن معنی ذلک - بالمقابل - انتصار علی، و تثبیت قوائم الخلافة لبنی‌طالب - ان انتهاء المعرکة قد اشار الی أن الخراج المصطنع قد أدی مهمته المزدوجة: حذفه - أولا - رجلین من الساحة یطالبان بخلافة - و ثانیا انهاک قوی خلیفة هو الآن خطر فی ساحة الصراع. ان التلهی - میدانیا - عن صفین، هو أیضا توفیر فرص لمعاویة فی اتمام اعداد جیوشه، من وحی الساحة و وحی المستجدات، و یخلق لکم الله ما لا تعلمون.

ثم ان الرجوع جدیا الی صفین، وان راح یمیل الکفة الی مصلحة الخلیفة أو یرجحها، لم یکن الا لیعصر قلبه بالغم - فالفرات الذی یتهلل بسقایة الحقول و استنبات الخیر منها - انه الآن هو الذی یسقی الحنظل، لتنتشر حوله، فوق السهول، جثث المسلمین الملبین نداء الموت فی الخراب و الدمار!

و جاء دور رفع المصاحف - لم یزل التاریخ حتی الآن یهزأ من تمثیلیة عوراء ادخلها الدهاء بلون، و أخرجها بلون آخر - یا للدنیا تأخذک بهاتف الصدق، و هی مموهة ببریق الخدیعة! ان الاجتماع با ذرح، أو فی دومة الجندل - سیان تعیین المکان، أو ابداله بمکان - لم یبدل من الجوهر - و دل الی أن الخادع هو الذی یحتال علی امتلاک الدنیا، وان المخدوع هو الذی یحاول رأب الصدع، أبعادا عن الناس أهوال الحرب، و هدر الدماء.

[صفحه ۸۵]

و لکن المحاولة التی بقی الامام مستمرا بها لم تثمر - ما کانت الرسالة التی امتلأت بها المصاحف لتقرأ! لأن الزیغ لم یتعلم أبدا تهجئة الحروف فی الکلمة، و کانت النتیجة، بین یدی معاویة: تحضیر جبة حمراء راح یزهو صباغها، و هی تنهل علی کتفیه - و فی حروراء تحضیر فتنة لقمت العصیان فلسفة العصیان، راح الامام علی یتلهی بقمعها و تخلیص الناس من مخارجها - و ما کاد یقضی علیها، و یعود الی اسماع کلمة أخری من کلماته، حتی اسکته - بضربة سیف - ابن‌ملجم!!!

- ۴ -

ما أظن الامام قد سکت. ان الکلمة التی یبست علی شفتیه بقیت تنطق - ما أیبسها الموت - بل أنها زهت به.

ها ان الحسن جاء یقرأها فی اذن معاویة، جاء یأخذها عن شفة أبیه التی لا تزال تفصح: ان الدنیا لا تؤخذ الا بالجمال، و ان الحق هو

الـذی یبنی الناس فی المجتمع الصـحیح، وان الناس هم زینـة الـدنیا، فلتزه الـدنیا، وانما هی لتزهو، فهی جنـة الله لعباده، ولکن بالتقوی فلتزه، بنعمـة الله و نعمـة الحیاة الکریمـة فلتزه، بمفهوم الرسالة التی تحیا فی الضـمیر الکبیر فلتزه، برفع المصاحف - مثلا - و بتحکیمها الصادق فلتزه، و لیکن الصدق دیدنا فی البناء، لا الخدیعة - فالخدیعة هی التمویه الذی یشبه الغبار.

لیت المجتمع قـد لبی مضامین الرسالـة، لکان علی اماما قبل أن یدخل حلبة الخلافة و المبایعات التی طرحته فی الساحة مغمض العین، و لکن، ناطق الشفتین: بأن الحقیقة لا تموت فی مجتمع الانسان، فهی تعیش به و فیه مع قیام الساعة.

هـذا هو مجالک الآن أیها الخلیفـة الجدید - أیها الحسن، أیها الامام النائم فی عینی جدک العظیم، و الناطق بشـفتی أبیک المتمتمتین بنهج البلاغة.

[صفحه ۸۶]

الحسن

أیها السید - هذا هو مجمل المراحل التی قدمها و مثلها و أخرجها العصر أمامک - لقد رزمت ذاتها کلها بین یدیک، وتحت عینیک: عینیـک النـاظرتین، و عینیـک المبصـرتین - عینیـک الرائیـتین، و عینیـک المغمضـتین علی اللمـح المکنون فی خزائن الظنون - و لقد شاهدتها جمیعا تمشی: تارة باقدام مشقوقة من تراب الأرض و رمادها المذری قیحا فی الجفون، و طورا بأقدام مخففة لیست من ریش اللحم و العظم، بل من أریـج مسـحوب من مقل لیس لها فی التراب مقام. و لقـد رافقتها تدرج امامک فی حلبات الزحام، یلفها هناک زمـام من الحق، و زمـام من الخیال، و زمام من الروح، و زمام من الصـفاء یطفو فی العین فیجعلها قطعـة من جنان - بینما یلفها - هنا - فی المقطع الثـانی، تراب مجبول بلعاب الثعابین، علی رباطات من زنانیر یموهها الطمع بالخـداع، و البطولـة بالـدهاء، و کلها علامات و هن جاء جدک العظیم لیخلص منها عقدة اللسان.

ما شـحت علیک المراحل أیها السـید، و ما شـحت علیک قراءتها: لا فی حبو الطفولـة طفولتک، ولا فی قفزات الفتوة فتوتک، و لا فی مراحل و صولک الی حقول البلوغ. و لقد شاهدتها - فی التمثیل و فی الاخراج - یمتلیء بها العصـر عصرک،عصر النبوة، عصر البدایة فی الطرح الکبیر، عصر الاساس فی الانطلاق المرکز جمع أمة من أم الأرض، هی الآن للجمع و التحضیر، لأن تصبح أمة للاعتداد بها، و للتبـاهی. ألاـ یکون لنا ظفر و نحن نعیـد قراءة خطواتک، و أنت طفل ملفوف بخرقـة صـفراء، لم تحب بعـد، الی أن قفزت عقـدک الثـالث، موشـحا بجلال البلوغ، و مجلیا بجلوة معتمرة بجوهر الأحـداث المحشورة فی العصـر؟ لیست زهیـدة فی الفترة التی عجنت فیها خطواتک، و عجمت هی عودک - و لقـد أصـبحت فیها عظیما، لأنک ربیت فی أحضان العظام، و رافقت الخلفاء الأوائل، وشاهـدت بام العین کیف یتم اللعب فوق خشبات المسارح، و کیف تطفو النوایا علی بیاض العیون و سوادها، و کیف تحفر

[صفحه ۸۷]

السـرائر خطوطها فی صفخات الوجه و فوق لوحة الجبین، و کیف تتم الأحداث فوق ساحات الصراع، و کیف یلهو بها مجتمع الانسان فتبنیه أو تشقیه، الی أن یدرک ما هی حقیقة الصراع.

- ۲-

قـد تکون المرحلـة الأـولی من بین المراحـل التی مرت أمامـک فی الانسـیاق، هی اغنی المراحـل و أعمقهـا ترسـیخا فی ذاتک - انها

مرحلة الطفولة. من المنطقى انك عشتها جملية بريئة، و ملونة بالدلال، ولكنك لم تكن - و انت طفل يلثغ - لتفقه ما تخصص لك فيها، و ما اختفى من معانيها،و ما انطوت عليه المقاصد من تلوينها، و ما هو الذى يشتغل فى تنسيقها و دفعها من الخطو الصغير القدمين، الى انتعال الساحات العظيمة التى هى شاؤ آخر عزيز الشأن فى حقيقة وجود الانسان.. فيما بعد - أيها السيد - بحكم الطبع فيما بعد، من كل خطوة كنت تتنقل بها - كان يتألف هذا «البعد» صرت تدرك الأبعاد، و تتوضح لك المضامين، و تشرق عليك ابعاد المقاصد.

لقد أدركت بالتدريج أن ولادتك كانت ثمنية، كانت من صنف آخر، غير الصنف الذى يأتى - هكذا فقط - عن طريق اتصال رجل بأمرأة، فتحصل بنوة، بل عن طريقة اختيار بنى فى الروح، واداه الشوق مدفوعا الى الاخراج - لهذا ادركت أن أمك فاطمة لم تحضر رحما يتم فيها الاخصاب، بل حضرت أما تشارك فى حقيقة التوليد، و لا لتكون اما لفرد، بل اما لذاتها المتدفقة من ذات أبيها - ستصبح فيما بعد، اما لسلالات يسمو بها الحق، و يثبتها نبل القصد جدارا من جدرانه المنمقة بالصواب. لهذا حضنت أمك فاطمة بحنان لون لها التربية و التخصيص، بعد أن اكتشفها جدك - أبوها - بأنها خميرة ممتازة من خمائر التكوين النفسى - الروحى الأنيق، وان فيها من الجمال ما يجذب روحه الى الانسكاب فيها انسكابا اندماجيا، يجد له فيه حقيقة الارث.

من هذا النوع كان ادراكك لأبيك، بأنه منخوب لأن يتصل بأمك، فهو من الخميرة ذاتها التى يطيب بها عجن الطحين - سيكون على اباك، و هو

[صفحه ۸۸]

موصول بجدك، ينقل منه الى ذاته صفات أبوه مدغومة بالتراث المستمر فى الحقيقة التى شحذت عليها الرسالة حسامها، أنه الاهتمام ذاته ببناء رجل يكون أبا لذرية تأخذ على عاتقها اعباء قيادة أمة مجموعة من فيض حق غرقت فيه الرسالة. ان الرسالة الآن هى الجامعة صفات الأبوة، و صفات الأمومة منقولة غرسا فى الأبناء الموصولين بها بالتوجيه المتوارث...

من هنا كان ادرككك بأنك وريث قبل أن تولد، بأنك معد قبل أن أبصرت عيناك هذا القبس، بأن بناءك يصدق و تتعين المسؤولية فيه، لأن التربية هى المعدودة لا ثبات الصدق، فهى منه خصب، و دفع، و تلبية أمانة، ومن هنا كان دلعك على جدك - و أنت تلعب حتى فى باحة المسجد - قبولا و اقرارا، بأنك أنت ابن الشوق الأصيل، و أن اهتمامه بطفولتك الندية، هو تجسيم لأحلامه البكر فى تبصره بأمور الصيرورة - حتى الخرقة الصفراء التى رماها عن جسمك الطرى - و أنت ابن يوم - توصلت أنت و اكتشفت أن الرمز فيها هو تخليصك من أى لون يقصفك به الكبريت - أن الأكباد المشحونة بالضغائن، هى التى تخطف اللون من الوجوه، و تكسوها بصفار الموت - حتى لون القماش يلفون به جسدك، لم يرده نظيفا من لونه الأصفر. هذه هى مرحلة طفولتك، و هى تلقى عليك أثقال الروابط، و هى تحضرك للاتصال بكل غد يحقق لك جلوة تستنبتها من حقيقة مهماتك.

- ۳-

اول صدمة هزت كيانك و أنت فى اطلاتك الأولى على سن التمييز، كانت اغماضة عين جدك فى غفوة صامتة الهدب، و رهيبة السكون، لم تكن انت لتحسب أن عين جدك - هكذا - يعتريها مثل هذا الانطفاء، و لكنك أدركت هولا- قرأته فى عين أمك المذبوحة بالدمعة الحمراء و تحسست ثقلا رزح تحته أبوك و هو يلملم نفسه من ترنح يكاد يفقده الصواب! لقد فتحت الصدمة هذه اخدودا فى كيانك النفسى، عمقت فيه التجليات - و ان غارقة الآن فى المبهمات الا- أنها ستطل بك، مع امتدادات الأوان، على استكشاف الحقائق فى

[صفحه ۸۹]

الوجود، و ربط الموت بالحياة التى يبقى لها فى المجتمع كل الاستمرار.

لقد أخذت كل ذلك باحساس ضمنى: ان يكون احساسا طفلا، الا أنك تناولته من رهبة الموت، ورحت تفتش عن جدك الذى غاب، لتجده متفجرا فى عين أمك، و لتجده حيا فى صدر أبيك المزروع فى حقيقته الغائضة بروح الرسالة. أنه شعورك الضمنى المعبر عنه بالصمت و الحزن و الهدوء، و هو من البدايات التى راحت تسير بك الى كل جلوة تستنير بها فى طريقك الآتى.

يكفيك منها الآن، أنك شعرت بهلع المصيبة، و أنك جمعت على صدرك الصغير - و حسابها عميق الحفر، و أنك - بالتالى - ملجوج اليها بالادراك: ان جدك الذى غاب، هو الآن حاضر بأبيك و أمك، و شديد الحضور بك و بأخيك. أليس الموت الآن هو الذى يمتن هذا الرباط، و يلحمه لحما بنياط الحياة؟

و هناك شىء آخر قد حدث أمامك - أنه أيضا من نوع الفجيعة، أو أنه جاء صباغا تلونت به فجيعة الموت بما جعلها أشد رزءا، و أثقل حملا فى عملية التصبر عليها، و التصدى لها بالتأسى: انه الاسراع بعملية تعيين الخليفة فى اجتماع سقيفة بنى‌ساعدة، قبل انتهاء تغييب الجثمان، ولفه بحرمة الوداع - لقد قرأت أيضا فى عين أبيك، ذلا طاله بطعنة فى قلبه، و فكره و مكانته، و كذلك فانك لم تدرك الا بحسك الضمنى، ان الخلافة هى تأكيد لأبيك، فما دخل الغير فيها؟ الجد هو جدك، و النبى هو أبو أمك، و أبو أبيك، و أبوك بلا جدل و بلا أى نزاع... فما بال الناس يأكلون الثمرة و يقطعون الشجرة! ما بالهم يأخذون الرسالة و ينبذون أصحابها الفاعلين! ما بالهم يتسابقون الى المائدة و يطردون عنها الذين بسطوها و مدوها و لونوها بالطعام! ما بالهم يتزاحمون الى البئر يرتوون منها و يطمرونها بالذين حفروها و أغرقوها بالعذب الزلال!!

هذا ما رأيته بحسك الضمنى أيها الحسن، فى هذه الساعة المطلة بك على جدث جدك الذى لم يتوار بعد - و لكنك - فيما بعد - سترى الحقيقة الكبيرة، بأن الرسالة التى تفوه بها جدك العظيم، انما هى للمجتمع العظيم، انها له، تؤسسه حتى يصير عظيما... أما الآن، فى هذه اللحظة الحاضرة: فان

[صفحه ۹۰]

المجتمع هذا لم يبلغ بعد الساعة الثمينة، لهذا اعتبر المجتمعون فى دار السقيفة، ان الرسالة هى للمجتمع الذى يتصرف بها الآن على هواه - ستدرك فيما بعد، أن الرسالة - حقا - هى للمجتمع، و أن الوصاية لأبيك فى القيمومة عليها، هى من باب الحرص على تعهدها و هى طرية العود، من أن تتناولها الأهواء و الأنواء فتلويها عن سواء السبيل - انه النظام الجديد أيها السيد، انه تدارك من وقوع فى اخطاء ادارة... من حقك أن تشعر أن أباك قد هضم حقه فى الولاية: ولكن واقع المجتمع قد فرض ذلك - و سترى أن أباك هو الراضخ الأول لما هو مفروض: وستجد نفسك أنت أيضا مسوقا الى القبول و أنت تخدم رسالة هى لك و للجميع، دون أن تنسى مهمتها الجليلة لن تكون الا بناء المجتمع الذى هو الأمة العظيمة التى تستحق جليل العطاء، لأنه منها هذا العطاء.

كنت تقفز عشرا من عمرك، عندما خلت عن أبى‌بكر سنوه - جئت منسلا خلف أبيك لالقاء نظرة أخيرة على الجثمان المسجى. بقى أبوك غارقا فى مداه و هو واقف كأنه قطعة من هزيع الليل، أما أنت، فانك لبست زوايا من حنايا الماكن، ورحت متأملا - أما عمر بن الخطاب الذى انتقلت اليه الخلافة بوصاية خلعها عليه الرجل النائم الآن على عتبة الصمت، فانه لم يتورع عن تثبيت عينيه عليك - لا ليخفف ما بنفسك - بل ليغسل به نية عاشت فى خلية نفسه، و هو الآن يتأثم بها! لقد أصبح الآن خليفة المسلمين، لا أبوك على أيها الفتى الذى ظل متفكرا يستعيد ذكريات جده - هكذا - قد اندمج فى حلبة الصمت، و هو يتمثل أيضا أمة المبتسمة فوق فراشها

الأبیض: بعد أن خسرت أباها، و میراثها فی أرض فدک، و شجرة أراک کانت تقیها من حرارة الشمس، و کرسیا للخلافة وقف لذریتها فی حقیقة التمثیل لقضایا المسلمین.

لقد أخذت کل ذلک بحسک الضمنی - فی تلک اللحظة - و أنت تتأمل نقل المشاهد فوق خشبة المسرح: من أبی‌بکر الی ابن‌الخطاب، دون أن تطرف

[صفحه ۹۱]

عین نحو أبیک الذی هو فی نظرک أرحج من کل من هو فی المکان

لم تلحظ عند أبیک حقدا علی عمر، ورحت فقط تستشعر عنده عتبا علی الرجل الذی لم یلب نداء الأشواق عند جدک الرسول، من هنا کان أبوک یلبی

الخلیفة المستشیر، بتقدیم النصح، و ابداء الرأی، والمشارکة فی حل المعضلات - مساهمة منه فی خدمة الرسالة التی هو الآن یمثلها بورع و نظافة کف. ان الرسالة التی کان یتمنی جدک أن یتعهدها أبوک، لم تستجب تمنیاته، انما هی الآن بحکم واقع آخر، بین یدی رجل آخر.

کنت فی بدایة عقدک الثانی لما استل أبولؤلؤة، غلام المغیرة، خنجره و ضرب به خاصرة الخلیفة، فأرداه یعالج سکرات الموت! لقد هز الحادث کیانک المنقول حدیثا الی باحة الرجولة المتحلیة بالادراک و النضج والفهم، ولقد أوقفک ملیا أمام نفسک تفتش عن سبب الجریمة، ربما وجدت أن قساوة الخلیفة فی توزیع الضرائب بین الناس، هی التی اردته ضحیة - ربما رأیت أن حقدا موروثا بین القبائل هوالذی اشتغل فی أخذ ثأر - ربما بدأت تدرک أن المجتمع المریض لم یعمل بعد علی تخلیص ذاته من أورام مرضه، ففعل التخلف فیه ما فعل علی ید أبی‌لؤلؤة - و لکن النتیجة واحدة - ان الخلیفة قد مات - حرام أن تصاب الخلافة بعقاب لا یستحقه نبل الرسالة.

- ۵ -

ها هی زحمة من الأحداث بدأت تتمثل تباعا أمامک فوق الساحة التی مات علیها الخلیفة - لم یمهله خنجر ابولؤلؤة أکثر من أیام معدودة، تمکن أثناءها من تألیف مجلس استشاری أسند الیه أمر تعیین خلیفة جدید یتسلم زمام الحکم وادارة المسلمین، - لم یکن مسموحا للمقرر فیه - عبدالرحمن بن عوف - أن یتجاوز حدا مفروضا علیه مسبقا فی التعیین؟، مما سهل وصول الخلافة الی عثمان بن عفان - لقد کان أبوک یستشعر حصول ذلک، و أنت کذلک - و ان کنت فی مستهل الرجولة و النضج - أصبحت تدرک أی حطب تستحث ناره تحت القدر المعد لطباخة مثل هذا الثرید - ولکن الذی راح، بوقاحة، یتکشف کأنه

[صفحه ۹۲]

یسابق الزمن الی ظهور و البروز - هو اسناد کل وظائف الدولة المرموقة و الحساسة، الی بنی‌أمیة بالتخصیص، و ها هو معاویة، حاکم الشام، یتمتع بنفوذ وسیع الصلاحیات، وسعها له عثمان، من أجل الغایة المبیتة بقصد وفن!

لم تخف علیک أیها السید، لا فصول الروایة، ولا حتی مشاهدها الصغیرة الجانبیة، ورحت مع أبیک تنبهان الخلیفة الی وجوب تلافی الأخطاء و التخفیف من غلوائها - لیست الخلافة مرکزا یستهان به فی خدمة المسلمین، و جمعهم الی حق هو للکل علی السواء - لیس الاستئثار بمغانم الحکم هو فی خدمة الرسالة، و لیس الحکم أبدا لجنی مغنم دون توزیعه علی المجتمع بقسط وعدالة، ولیس الحکم

سباقا الی نفوذ یحقق رغبة فی تغذیة شهوة، و لا بؤرة یربو فیها الحقد،و تتغذی منها الضغینة، و لا مرکزا حصینا تتجمع فیه القبائل لتنطلق الی عملیات سلب، و غزو، واغارة علی مراعی الغیر... لقد قیل کل ذلک لعثمان، انتما بالذات قلتماه له، و کانت منکما - لا صلاحه - مشارکة و مساندة - فأنتما لم تعتبرا الخلافة الا مرکزا مشقوقا من صلب الرسالة، انه تمثیل للنبی العظیم الذی استوحی الرسالة، لیعیش بها و فیها من أجل الأمة. من هنا تکون الغیرة علیها منبثقة منها - ان الغیورین علیها هم من أهلها المنسوبین الیها فی حقیقة الجهد، و التحقیق، والأصالة.

بهذا الادراک و الاقتناع أیها السید، رحت تنخرط بجیش التحریر تعزیزا للأمة و ربط طاقاتها بجمیع مصالحها - و هکذا تم تحریر افریقیا، وکنت مع ابن‌العباس،و ابن‌جعفر، و أخیک الحسین و کلهم أهلوک من بنی البیت، تحت قیادة عبدالله بن أبی‌سرح، أخی عثمان بالرضاعة - و لقد اشترکت أیضا بتحریر طبرستان فی الجبهة الشرقیة، بقیادة سعید بن العاص.

تلک هی مبادراتک، بعد أن أوفی بک العمر الی جلوة بدأت تحقق لک حقیقة الاعتبار - لم تنجح فی تغییر مجری الاحداث، و لم تصلح من نیة عثمان، و لم تثبط من عزم معاویة، الا أنها - مبادراتک تلک - ثبتتک رجلا مجلیا بحقیقة

[صفحه ۹۳]

الامامة... ستنظر الیک الساحة الخالیة منک، و تطلبک الی نوع من التمثیل، و لا فرق ان جئتها اماما، أم خلیفة، أم رجلا بلا حقیبة - طالما أن الزمن لم تتکثف ثوانیه علی رقاص الساعة.

- ۶ -

لقد انقلب الدهر علی عثمان - ماذا نقول؟ هل هو القصاص؟. هل طال القصاص کذلک صدر ابن‌الخطاب؟ فهوی ذلیلا بین یدی قاتل - نحر، ثم انتحر تحت قدمی من قتله؟! و أی عقاب کان للامام علی علی جهاد وصل عمره بطرفیه فی ساحات الجهاد، وفی باحات التحقیق لرسالة الاسلام! أیة یا ابن‌ملجم، اتکون أنت منفذا لحکم القضاء!

جل ما فی الأمر أیها السید انک احتککت بصلب الأحداث، و فهمت أن المجتمع وحدة فی الفهم و فی الاخطاء، و ان التردی فی المجتمع لا یفرق بین طینة ذکیة وطینة سخیفة، فهو یصیب الفریقین، الی أن یخفف الشطر الفاهم من ثقل الجهل،و یرده رویدا رویدا الی حقیقة الصواب.

ها انک الیوم، و قد افضی مقتل عثمان الی عکر ادی الی مقتل أبیک - وجها لوجه أمام معاویة، یسنده کل بنی حرب، و کل من یلوذ به من القبائل - اتراک تشد الحبال: الی ساحات النزال، فی سبیل کبح الأهواء، ورد الحقیقة الی واقع الصراع - ام انک ستوهی - بواقع المجتمع المریر: تقدم له الدواء الی أن یقبل - هو - تناول الدواء!!!

معاویة بن ابی سفیان

أیها السید الخطیر

هان ان القلم یصل الیک، و هو یقف مشدوها حیالک - کیف یرسمک؟ کیف یتناولک بالتحدید؟ کیف یلبسک قمصانک المنسوجة منک، و المدبوغة بجلدک، کأنک أنت نولها، و حیاکتها، و مکوکها! أنت عظیم علی ما یبدو،

[صفحه ۹۴]

ولكن العظمة هذه - كما يبدو أيضا - جاءت بها التحاديد الى مفاوز ما جمعت عليك الشعاع أكثر مما كسرته تكسيرا - فاذا أنت قطعة من فسيفساء هى لك من زخرف الشام - صناعتها المزركشة - و اذا أنت من بلورات الأرض انعكاسات تشرب النور ملونا بكل ساعة من ساعات النهار:فأنت مع الصبح شعاع لطيف يفتش عن منديل مقصب يلف به عنقه - و مع الظهيرة كابوس شمس يفتش عن ظلل و مع ساعات المساء و شاح يفتش عن قيلولة يغمرها حتى ينام بها فى حضن حبيب - يا للدنيا بين راحتيك - حضنتها و حضنتك على عشق متبادل، جعلتك منها، وجعلت ذاتها منك فى اشتقاق مهووس، ملطوخ الشفة بالشفة، و العطف بالعطف، كأنكما واحد لملء المكان، و كأنكما رقاص ساعة لجعل الزمان قينة تغنى للزمان - أنت حيرة على القرطاس امامى - آخذك بنفس ملىء بالاندهاش، ثم لا-اعتم أن اغمض عينى على و هن يردنى الى خديعة فيك، يقع بمثلها النظر، و هو يقيس مسافة فى الصحراء بين كثيب و كثيب، فاذا الرياح تمحو كثيبا من هنا و تلاشيه، بينما تصنع هناك من الثانى خمسة كثبان. هل كنت هكذا تتناول قميصا اخضر، ولا تلبسه الا و قد انهل منه عليك عباءتان: واحدة بلون الليل فى شعاب مكة، و اخرى بلون النسرين فى ربى الشام؟

لقد ولدت فى مكة و ربيت فيها بين يدى أبيك أبى‌سفيان - لقد كان يشكل على أبيك التفريق بين العزى و مناة، أيهما هو الاله الا قدر فى عملية الخلق والتكوين، و كان يميل الى هبل فى تسليمه قضية ادارة الكون و فك احاجى الوجود - لهذا جاء الاسلام و لم يسلس له عود فى تقبله دينا يبعثر كمية من الأصنام بعدد أيام السنة كانت تترصع بها الكعبة، فوق كل لطوة من لطواتها حجر قائم يمثل بضعة من اله - الا أنه كان لأبيك أن يؤخذ ببهر كلما وقعت عينه على غزالى مكة المحبوكين بخيوط الذهب - لهذا سلمك قوسا و علمك كيف توترها لتصطاد كل غزال محلى بقرنين صافيين من عسجد، و بخصرين ناعمين أبيضين بلون الفضة، و بذيلين منسوبين فوق فخذين انيقى اللمس كأنهما عجينة مطيبة بالكافور - و بعينين مكحلتين نائمتين على حبتين من ماس هما شهوة الدنيا الى الجواهر و اللؤلؤ.

[صفحه ۹۵]

لم يكن شحيحا عليك علم أبيك: كيف تؤخذ الدنيا و كيف تحلب و كيف تنصب الشراك للغزلان من حبال السراب حتى تجرى سريعا الى المناهل فتقع دون أن تشرب. لقد كان لك جد أيضا نقل اليك تلقينا كيف تأخذ الخيط من مغزل جار لك فتفتل به حبلا تشنقه به، ثم تأخذ المغزل و كل الخيوط التى تكون عليه - انه أمية جدك الحاقد على عمه هاشم، المكنى بعمرو العلا، و المكنى بهاشم الثريد - هكذا تقول الملح فى سير العرب، فى تزاحم القبائل على الغنم أو على مراتب الزعامة... هنالك ملحة أيضا تذكر عن منافرة وقعت بين جدك أمية و عمه هاشم، فى أيهما أكرم و أسخى و أسمح - و هى صفات توفر الزعامة عند رؤساء القبائل - و لقد افضت المناقرة تلك الى اقامة حكم يفرض الحكم و ينفذه على أن ينفى الخاسر عن مكة الى الشام عشر سنين.... و نفى جدك أمية الى الشام عشر سنين،و لما رجع الى مكة، بقيت الدار فى الشام باسمه - من هنا يعلق المراقبون: لما عينك الخليفة عمر واليا على الشام، جئت و لم تبحث عن دارة تسكن فيها، رأسا وصلت وحللت دارة جدك - لقد نزلت توا فى السرير الذى كان ينام فيه، و كانت الوسادات من حرير الدمقس، محشوة بصوف من وبر الابل، و كانت الجدران مطعمة بالرسوم الملونة، وكانت الغزلان مشبوحة عليها كأنها تحت وطأة المطاردة، أو كأن عطشا يطارها مشدودا بالسراب.

فليسمح لنا أيها السيد أن نبدأ - ان الملامح التى سيقت فى هذه النبذات القليلة لترسم فيك، لا يجوز أن تبقى هكذا ملفوفة برموز و اشارات، بل ان الانطلاق منها، و التوسع فيها، هو الذى يخدم الموضوع الذى نسوقه، ليس اليك، و أنت قد لففت بأربعة عشر قرنا من الغياب، بل الينا نحن الآن وقد لففنا بك بحقيقة الاستمرار. فان كانت الأمة قد أصابت منك هدفا أو تحقيقا لصالحها أصيلا، فيا ما أطيبك فى حقيقة الذكر، و ان تكن - عن يدك - قد خذلت فى أمانيها، فما احوجنا الى عتب و لوم نقاضيك بهما - لا للشماتة أو

الانتقام، بل لتقدیم تصحیح تستقیم به أیامنا الطالعة فی التمنی لأن یکون الخیر فی الأمة هو نبراسها الصادق فی الحیاة.

[صفحه ۹۶]

ما من شک - أنه اقرار من التاریخ فیک - ان فیک ذکاء رفع فیک العقل الی مرتبة ممیزة التصنیف، لهذا فأنت ادهی العرب علی ما یقال - بقطع النظر عن تحدیر ماهیة الدهاء، و ما هی شروطه الصحیحة لأن یکون - أولا عقلا، ثم یتحلی بالصفات التی یکون الدهاء واحدة منها. بهذا الذکاء تم لک بروز الی الساحة،و بهذا الدهاة الذی تحلی به ذکاؤک، ستکون لم مراحل فی البروز، تقتنصها من کل المستجدات التی کنت تزرع الساحة بها، لتقطفها أینع فاینع - ما من أحد أنکر علیک جدید الابتکار فی الاستحضار - فأنت فذ بین الرجال - أنت من الصف الرفیع الذی یعرف کیف یسوق الریح و یلفها علی دوالیب النواعیر.

و لکن... هل أن الذی رجحک الی الساحة هو فقط ذکاؤک، أم أن هناک خطا سیاسیا تمت علیه اللعبة الصامتة؟ اسمع یا سیدی، قد یجوز لکل واحد منا أن یکذب علی نفسه - ولکننا لا نقدر أن نکذب علی التاریخ - ان التعلیل الصحیح لا یسمح للتاریخ أن یکذب، و ان کذب، فان المنطق یقاضیه ویرده الی صواب. ما من أحد حتی الآن - رغم عبور الاجیال و امتصاص الأیام ساعاتها و ثوانیها - شک بصدق ابن‌الخطاب و ابی‌بکر فی خدمة رسالة الاسلام، و لکن نیتهما المبیتة فی التصرف دلت الیهما بوضوح، انهما یرفضان تسلیم النبوة و الخلافة لبیت واحد، هو بیت الطالبیین - لهذا کانت الخلافة لقرشی آخر، هو بحکم الطبع غیر طالبی.خمسة و عشرون فخذا هم بنو قریش - ان فخذ الأمویین علی الأقل، هو المرید الأحقد و الأصلب فی ابعاد النفوذ عن بنی‌طالب - الجد «أمیة» الذی نوهت عنه منذ قلیل بملحة من الملح، هو الذی یعیش دائما فیک أیها السید، و ان نیة الخلیفتین: أبی‌بکر و عمر، هی أیضا قد استندت علی ذکائک فی تمثیل الخط السیاسی المعین الذی یقطع الوصل بین الخلافة و النبوة، و یجعل الخط مفتوحا أمام کل بنی قریش، ان القبائل فی العصر هی التی ترید - أما النبی الذی کان یتمنی: فنا حیاته علی الأرض کانت قصیرة و غیر کافیة لتحقیق الأمنیة.

هنالک سند آخر جاءک درعا جدیدة منعت بها صدرک فی ساحة الصراع -

[صفحه ۹۷]

انه الخلیفة الثالث، قریبک من بنی‌أمیة - عثمان بن عفان، لقد آزرک و وسع لک الولایة علی جمیع أرض الشام، و من حدود فلسطین الی أبعد من حمص، و کسح لک حدود البحر، و أوصلک الی القاعدة قبرص - لقد افسح لک کل مجال فی التثبیت، حتی یکون علی یدیک بناء ملک لا- بناء خلافة، تتناوله مرکزا لک و للبیت الأموی، فی القضاء نهائیا علی کل أمل یختلج به صدر طالبی - هاشمی، لقد توسم فیک أبوبکر و عمر ذکاء تتسلم به دائرة الشام، أما عثمان، فانه وثق بک الی أبعد الحدود، بأن فیک ذکاء تتصرف به الی درجة الدهاء، و آمن بک طباخا ماهرا تلعب بکل نار تحت أی قدر - و تحصد الدنیا الی بیادرک التی هی بیادر بنی‌أمیة.

- ۳ -

منذ ربع قرن و أنت فی الشام: فی سندس من غوطتها، وفی ینع من ثمارها، و فی مرح من سهولها و مروجها و مجاری انهارها - لقد کانت کل خیرات الأرض بین یدیک، بحکم ولایة مکنتک منها سیاسة عمر بن الخطاب فی تحریر الأمة و صیانة مواردها، و تخلیصها من النیر الرومانی المستعمر المستبد، و قد لبت الشام سیاسة الخلیفة، و سهلت عملیات الفتح و التحریر أمام خالد بن الولید و أبی‌عبیدة بن الجراح، لا لأنک أنت ستکون الوالی علیها، ولا لأن جدک أمیة قد نزل فیها مدة عشر سنین - کما تقول الأحدوثة - ثم انسحب مخلفا لک فیها دارة فسیحة و مرکزا قاعدة ثبت أنت له الأرکان بذکائک المستحق - بل لأن السلسلة الطویلة من الجدود الأقربین و

الأبعدين، و آخرهم المصريون و الحميريون، الاسماعيليون و القحطانيون: القرشيون و البكريون و التغلبيون و التميميون، الأوسيون الخزرجيون الأزديون و الكلبيون و اللخميون – و كلهم المنداحون فوق أرض الشام، و فوق أرض العراق، الحاملون الاسم و النسب، و الأرومة العربية، و المشتركون منذ آلاف السنين بعمارة الأرض، وزرع البساتين، و تنظيم الرى، و انشاء المدن، و تأسيس الحضرات. لقد جاء الاسلام من أرض بجزيرة الأم، ليجمع الأم الى أبنائها المنشورين هنا و هناك.

[صفحه ۹۸]

منذ بداية تكوين الانسان فوق الأرض المفتوحة أمام عزم المتنقلين وارادتهم فى ترجمة الحياة التى تجذر الانسان فى التربة المعدة ميدانا أبديا لعلوق الانسان.

ليس فى القول هذا انتقاص منك أيها السيد، فالشام ما كانت أبدا ملكا لك، بل كانت تلبية لنداء طلبها الى التحقيق فلبت، كما طلب العراق فلبى، و كذلك مصر أو المغرب العربى، ما ساء أبدا خط الرسالة، رسالة التوحيد – لقد كانت لكل القبائل – فكما وحدت بين الأوس و الخزرج، كذلك وحدت بين الخطين العريضين، خط مضر و خط حمير – و الخطان الموجودان اليوم فى الشام، قد تضافرا أمامك كوال، و قدما لك النجدة الكبيرة و العريضة لتثبيتك واليا مقتدرا. ان الرسالة – و الحالة هذه – هى التى جمعت لك السلطان، فأنت باسمها أصبحت تفعل، ولقد تمكنت بها حتى الآن من جعل الحميريين متناسين احقادهم القديمة على المضريين – أو على الأقل مجمدين فى عدم اثارتها فاعلة،لأن الرسالة قضت بذلك، و لأنه ليس من مصلحة الوالى الذكى، أن يذكى نارا تحرق له طبخة لذيذة هى الآن تتقلى فى القدر.

ان المهمة جليلة أيها السيد أن تمتن اللخمة بين خطين من خطوط القبائل التى يقوم عليها كيان الأمة، ان تلفهما الى حقيقة اجتماعية بناءة، هى رمى السهام كلها عن صدر الأمة لجمعها كلها لصيانة الصدر الذى يخفق فيه قلب الأمة – هكذا الرسالة بنظرها الى الحقيقة، راحت توحد بين جميع القبائل و البطون و الأفخاذ – و لقد قدمت المثال فى التوحيد و الموآخات فى يثرب بين الأوس و الخزرج، و أنه لمن الايجابيات أيضا أن يكمل الوالى سيرا فى الخط الذى مهدت له الرسالة بنظرتها الأصيلة الى الوجود و الكون. ألم تكن منصبا فى الشام واليا باسم الرسالة التى تبحث بأمر الانسان الذى هو حقيقة الوجود و الكون؟

يطيب لى الآن ان أنوة عن حدثين متوازيين فى الاداء، مرا عليك فى ذلك الحين،و كيف ننظر اليهما نحن الآن، بعين العصر – ان الحدثين المتوازيين هذين، هما شخصان حمل اليك كل واحد منهما رسالة: الأول هو بشير بن

[صفحه ۹۹]

المنعمان، و الرسالة التى كان يحملها كتبت بحروف مدقوقة على نول، فواصلها خيوط مكوك، و حبرها دم مفجور من وريدى الأبهرين، أما الفكر فيها فتعبير عن ثورة، قرأتها أنت: جريمة اغتيال، أنها مشهورة رسالة بشير بن النعمان –اليست قميص عثمان؟ ملوفة فيها أصابع زوجته نائلة، التى قطعت اذ مدت لوقاية صدر الخليفة من ضربة السيف؟ لقد تلقيت الرسالة و جعلتها راية منشورة فوق المنابر. أما الرسالة الثانية فلقد حملها اليك – بعد برهة أخرى – جرير بن عبدالله البجلى، يطلبك فيها الخليفة الامام على لاجراء لقاء يتم فيه صلح تحقن به دماء المسلمين. و لكنك لم ترد أن تقرأ رسالة جرير، لأنها كانت فى نظرك – على ما يبدو – سخيفة التعبير. أما نحن الآن فلنا أن نفسرك أنت، و الرسالتان بين يديك، بأى عين قرأت، و بأى اذن سمعت، و بأى قصد طويت رسالة و نشرت أخرى، تاركين الحكم لك أو عليك الى مجرى الأحداث التى يأخذها التاريخ الى خانة النتائج التى تتقيم عليها عمليات الحساب.

ان الرجل المقتدر الذى هو أنت، عرفت كيف تتسلم أزمة الأمور، و كيف توجهها للوصول بك الى حيث أنت تريد - لم تفتك السوانح، لقد كنت تعرف كيف توجه دواليبها مع الريح، و لقد وافتك طائعة المجرى - هل أنت بذاتك جعلتها طائعة؟ و كنت تتمكن ان تجعلها هكذا طائعة، بفيض من موهبة لك و ذكاء - أم أنها انقادت اليك و لك، مع طيب حظك و سعد نجمك؟ كل ذلك قد كان لك على مدى خمس و عشرين سنة فى ظل ثلاثة خلفاء متعاقبين على الحكم فى دنيا المسلمين، و كان لثلاثتهم تحقيق فى سبيل الأمة و تحريرها، ألم تحرروا أرض الشام من عبث و تسلط قياصرة الروم، و سهلوا لك، بكثير من اليسر، وصولا الى ادارة حكم أرض هى درة فى الشرق، و هى موئل من الموائل العظيمة التى هضمت كل موجات القبائل العربية، و لا تزال تهضمها و تحولها ماهية انسانية عظيمة القيمة،و عظيمة الحضارة، و عظيمة التاريخ، و عظيمة الانسان - انها كلها - هذه الأرض - ممدوة من أقصى الشرق من الخليج العربى، الى أقصى الغرب من حدود المتوسط، على طول الخط الجنوبى الصحراوى من الجزيرة الأم، أما أنت فلقد خصصت الشام لك بالولاية -

[صفحه ۱۰۰]

الشام القلب، والشام الرئة، و الشام السهول، و الشام الجبال، و الهواء و الظل، و قسم وفير من الجد الموصول بمجد دجلة و الفرات... تسلمت الشام ورحت تديرها دون أن يعكر أحد عليك أى مجرى من المجارى، لقد لبتك كل القبائل، اكانوا مضريين أم حميريين، أكانوا اديرة أم قسسا رهابين، أم مواطنين صامتين عاديين، أم فلاحين زراعين كادحين، أم تجارا بارعين ينقلون انتاج الأمة الى كل صقع من أصقاعها، توزيع خير، و توزيع انتاج، و توزيع رفاهية - لقد سكن الجميع اليك، و وفروا الربح لك، و حققوه ظلا لعيالك، و بيوتك، و قصورك، و حققوه منعة لجيشك، و سيفك، و نبلك، وقوسك.

انها الحقيقة فى القصد - على ما يبدو - فأنت ما جمعت هكذا الشام الا لتكون لك الشام فى حقيقة الملك، لا لتكون الشام من مجهودك لأى خليفة سواك. لقد كان كل ذلك وضوحا فى مسراك. أما أن يموت عثمان، فلست أنت لتدافع عنه، بل لأن يكون موته دفاعا عنك أنت بالذات - أما ان يطلبك الخليفة الجديد الى صلح - فأى معنى لذلك؟ فأنت لا تطلب صلحا، بل تطلب ملكا يخسرك اياه الصلح الأعور... ان تطلب ثارا لعثمان، فذلك أيضا هو مرانك فى عمليات الدهاء - فالملك لا يثبت الا باسم المسلمين، باسم الرسالة التى هى الآن جامعة لكل المسلمين - و أن تكن أنت من الطلقاء - و أن تكن الأخير فى الادعاء انك مسلم،فأنت الآن فى المركز المربوط بحقوقية المسلم، و أنت أيضا من صلب قريش، و أنت فى المركز الممتاز الذى ثبتته لك الموهبة، و أنت الداهية الذى تعلم طويلا- من أين تؤكل الكتف، و انت المتمرس الحصين، و أنت الرجل الكفء فى اكتشاف الثغرات، و فى كيفية سدها حتى لا تكون فراغا.

هل قتل عثمان بثورة؟ أم قتلته يد مجرمة حركت على ثورة؟ سيان ذلك أن تعتمد على تحقيق، أم الى رمى تهمة - ان نقضك الصلح كاف لتوضيح القصد، بأنك جعلت عثمان لك و لم تجعل نفسك أنت لعثمان، و أن يكن قد مات، فهنيئا له أنه قد مات مخلفا لك الساحة الوسيعة التى هى الآن قاعدة لك، صرفت العمر كله و أنت تشتهيها، ولن يشتهيها أحد سواك.

[صفحه ۱۰۱]

رفعت المصاحف - يا لعمرو بن العاص - انزلتها الى ساحة العراك - عجبا... و لم تستنطقها بحرف.... يا للدنيا، كيف تطيع بين يدى طالبها، و تلبية بالخديعة الكبرى! هل هكذا هى أركان الدنيا؟! تشبع الخادع بخديعته؟! و تجعله أخيرا يلتهم ثدى أمه بعد أن يكون قد

امتصه – عافية – قطرة قطرة؟!

ما هكذا الدنيا – على ما أرى – و اعشقها مليئة بالجمال. يا ليتك استنطقت كل حرف من حروف المصاحف – لقد كانت أرضتك بأنك عظيم، و بها ساعتئذ عظيم. لقد كانت أوحت اليك أن العظمة صفة فى الانسان، يلتقط بها من جدية الحياة – يجمعها من زخرف الأرض، و من تراب الأرض، ليجمعها زهرا، و ليجعلها أريجا،وليجعلها ثمرا، و ليجعلها روحا منسوجا من قدسية التراب، لقد كانت علمتك بأن الدنيا لا تطيب – و الحالة هذه – الا اذا ازدهرت بحقيقة الانسان، و ان الدنيا ارتفاع القيمة من جوهر الانسان – و القيمة هى المثل العليا التى تفرق بين الحيوان و الانسان – لقد كانت أوحت اليك أن الدولة التى نمقت حواشيها فى الشام هى الدولة الحديثة، و ان تكن أنت قد أخذت لها طرازا من وحى حكومات بنى هرقل – فانما هم قد استرقوها عن اجدادك القدامى القدامى، الذين علموا الفرس و الا غريق الحرف، ورق خشبة المجذاف، وتنسيق الرى فى السهول بعد أن جففوها من الوحول، و عمارة المدن و تنسيقها بالشوارع – لقد كانت أوحت اليك أنك عظيم تعمل على بناء الأمة من جديد، لتكون ملحومة بكل قبائلها حتى تصير أعظم أمة يتباهى بها فوق الأرض – لقد كانت أملت عليك مد يد كريمة الى اليد الكريمة الثانية التى تطلبك الى الصلح حتى تشد أزره، ويشد أزرك فى الألحام، و فى تجنيب الأمة و يلات الحروب و الصراع بلا جدوى انصرافا أكيدا عن حقيقة البناء.

اننى لا- أزال احتار فيك أيها السيد – يا كتلة من دهاء، و كتلة من ذكاء، كيف أنك لم تصغ الى آيات الرسالة البينات، و تركت الساحة تخلو منك بريئا، لتتشبث بك متهافتا على ملك الدنيا و بهارجها، و حصرها فى زوايا بيت أموى يفصل نفسه عن بيت ملاصق له هو بيت طالبى.

[صفحه ۱۰۲]

ستشاهد بأم عينك أزاحة خصم لك من الساحة المريضة، على يد ابن‌ملجم... أتراه – على – غاب مسهلا لك الوصول؟ ولكنه لا يغيب، طالما أنه حرف جليل فى حقيقة المصاحف التى احتميت بها فى صفين – لقد سمعته ينطق بالحرف ذاته فى مدينة يثرب على أيام عثمان بن عفان. لا نزال نحن الآن نسمعه يحاضر فى ساحات يثرب عاملا – مع ابن‌عمه عبدالله بن العباس – على انعاش الطاقات الفكرية، غائصا فى الفلسفة، والمنطق، والحديث، والبلاغة و الفقة – انها المواد التى تتألف منها حقيقة المصاحف – انها القوت الغزير المكثف، والمركز الذى يتملى منه العقل، و تزدهر به مجتمعات الانسان ان بها تلقيح الدنيا، وتجميلها حتى ترتفع بها الحقائق الى ديمومة ترسمها لها مجاميع القيم.

[صفحه ۱۰۵]

اى كرسى هو الحكم

المواجهة

لا بأس من اعادة الكرة فى التلميح الى ما سبق البحث فيه، ليس ذلك الا طمعا بالتوضيح و التركيزز: أية لحظة من لحظات عمر الحسن لم تكن وقوفا به – وجها لوجه – أمام معضلة وجودية، ما تحمل و طأتها الا و بنته – بالمقابل – بناء نفسيا عميقا، و ألقت عليه مسؤولية جديدة الطراز، و ثقيلة المعاناة؟

وجها لوجه کان ینام فی حضن جده الحنون، یتنقل علی زندیة من کف الی کف، و من ضمة الی قبلة، و من لفتة مفتحة العینین، الی استغراقة غائصة فی کل مداها.

وجها الی وجه رافق خطوات جده العظیم فی البیت، وعلی الدرب المؤدی الی المسجد لوعظ الناس، والصلاة فیهم صلاة التبرک بالحق، و التمرس بالایمان الذی یحرر من البغض، و الحقد، واجبن عن السیر فی تنقیة النفس من ادرانها الوبیئة.

وجها لوجه - أمام نفسه - عندما تجاوز سن التمییز الی سن الرشد - ادرک المقاصد، و فهم المدالیل بأنه وریث أنیق و مسؤول فی امامة ستتصل به عن أبیة، بعد أن یحرز لها عصمة منها، تؤکد له حکما موصلا الی ترکیز الرسالة مادة فاعلة فی رفع سویة الأمة، و توسیع المیادین لها بحقیقة التقریر.

[صفحه ۱۰۶]

وجها الی وجه شاهد تمثیل جمیع فصول المأساة فی تغییر الاتجاه الملحوظ فی اسناد الحکم - بالتعیین - الی شخص مثقف بالرسالة، مبنی مسبقا لضبط سیرها، و عدم الشط بها عن مجراها القویم. لقد کان ذلک من فرط حیطة النبی الکریم، فی اقتراحه نظاما جدیدا لضبط الحکم، و دفع الرسالة الجدیدة بهذا الحکم، لیکون جدیدا من نوعها - ألا و هو نظام الامامة الموسومة بالعصمة، تمکینا لحاملها بالمسؤولیة الفریدة من نوعها فی تعهد الرسالة حتی لا تحید عن مضامینها، أن التمرس بالصفات هو القمین علی استحضار المناقب التی یتم بها الحکم، والتی هی - وحدها - المادة العظیمة التی تبنی الحاکم، وکل مسؤول فی الادارة الاجرائیة و التنفیذیة التی ترعی هذه القیم و توزعها علی المجموعات الواسعة التی تتألف منها الأمة. یعنی ذلک نشر لثقافة عامة، نظیفة، منذ البدایة، تجمع بالحق، و توزع بالعدالة والمساواة، و تطیب النفوس بالتقوی و الورع، و تقضی علی الفقر الروحی و المادی علی السواء، و توحد المجتمع بالشعور النبیل الذی یقضی علی الحرمان، دون التسابق الی احراز زعامات قبائلیة قدیمة العهود، لم یعد بحاجة الیها الانسان الجدید الناشیء فی حضن رسالة جدیدة عنوانها: الاسلام و التوحید.

یمکن القول - اختصارا فی التحدید - ان اقتراح نظام الامامة یبعد الأمة عن عملیات انتخابیة لم تصب بعد منها حظا حضاریا موصلا الی اصابة. أما المبایعة فلتکن للامة، اجماعا منها، بقبول الرسالة التی قدمت الجدید الجامع، و قدمت الامام المصطفی معبرا عنها فی حقیقة التمرس بالفهم و الرشد، فلتکن اقتناعا منها بأنها وحدت مساعیها مسبقا دونما حاجة للرجوع الی التنافس علی مراکز السیادة التی کانت تتوزعها القبائل و تضنی بها فی تقاتل کان یرمیها فی الفقر و الجوع و البغض و الحقد، و البعد عن أی تحقیق انسانی تجد ازدهارها فیه مجتمعات الانسان.

قد لا أقول بالامامة نظاما أبدیا، یرافق الانسان فی جمیع مراحله التقدمیة فی الحیاة - أنه لیلیق للمجتمعات التی تصیب شوطا محترما من الحضارة

[صفحه ۱۰۷]

و الثقافة، أن تبتکر أنظمة و دساتیر تعبر بها عن کل جدید لها فی الحیاة، یوصلها الی أوفی، و الی أسمی و أرقی - و لکنی فقط أتساءل: لو أن نظام الامامة حظی بالقبول، و رأسا جاء الامام علی الی مرکز الخلافة بصفة الامام، اجل - الامام علی - الرجل المصطفی، الرجل الأول الذی اعتنق الاسلام، و الذی لا یزال الاسلام حتی الیوم یقول عنه: رضوان الله علیه، و کرم الله وجهه - تری، لو أنه قبل اماما خلیفة - أی بالتوصیة الی تغافلوا عنها - أکانت قد تغیرت مجاری الأحداث، و آل بها الاستقرار الی تثبیت رزین، و

بناء عفيف، و ترسيخ ما كن؟ ألم يكن الامام على موازيا لعظمة الرسالة و صدقها فى بناء المجتمع، و دعمه بالصواب؟ ألم يكن القبول به مبايعة اجماعية له، دون استشارة القبائل و انزالها الى حلبات الصراع التى كانت تقتل المتصارعين و لا تجمعهم الى صواب؟ افترض ذلك و أنا أسمع صوتا من هنا أو من هناك: - و لكنه وصل الى الحكم، فهل نجى من قتال؟! - و لكنه لم يصل أبدا الى الحكم، بل ان الذى وصل اليه هو المرض الذى ينتج من حوملة القتال - اثنى القول الذى بنيته على افتراض: لو أن عليا قبل فاتحة فى النظام، لكانت تبركت به الأجيال، و لكانت ترفض التخلى عنه، كما أنها لا تزال ترفض التخلى عن الاسلام الذى يجمعها كلا، ويجمعها دينا و دنيا، و يجمعها عالما يرجح به الغد الكبير.

و كان للحسن أن وقف وجها لوجه أمام أحداث جسام كشفت أمامة - بالتدريج - واقع البيئة التى عاش فيها جده العظيم، و أبوه الذى عانى و طأة الجهاد، فاذا هى بيئة التى مفتوحة فوق أرض فسيحة الأرجاء و لكنها مشوية بالبراكين، تتلاعب بها الريح ذريا للرمال، فتعلو أبدا كثبانا، ثم تنبرى مخلفة لججا يطمو عليها السراب دون أن يطفىء لها ظمأ - واحة هنا و واحة هناك لا يطول لها أمد، و لا يتسقر بها خصب تظلله سماء - فواصل فواصل مزروع بها المكان، بين كل حقف و حقف فجوات مستطيلة من فدافد تملأها الشمس بالحرات

[صفحه ۱۰۸]

و لا تقطعها الرواحل الا فى لطوات من حلك الليالى المستضيئة - ابدا بغوامز النجوم

لقد انتشرت فوق هذه الأرض ألوف القبائل: تتوزعها المساحات و المسافات، فى طغن دائم مشدود النعال و مشدود الرحال - و لقد كان الرحيل يلعب بها كلما اشتد عليها ضيق المكان - لا بمساحاته المترامية الاطراف، بل بشحه الأغبر، و رماله السمر الحمر - اللهم الا جنوب سعيد - اليمن - كان تعويضا حلوا، وان يكن زهيدا بالنسبة الى مدود طويلة تأكلها الأحقاف، و ترتج بها رياح من سراب. هكذا كانت تتجمع القبائل افواجا أفواجا، و تنداح متسربة فى انسيابات كبيرة الى الجهات الأربع من حدود المكان - والجهات الأربع تعنى بالضبط، كل ارجاء العالم العربى، لقد دمغته عربيا كل هذه الموجات الفائضة و المتسربة من أرض الجزيرة الأم، عبر آلاف السنين، من خلف الليالى الطوال،من خلف حدود التاريخ، من صلب وجود القبائل المنتشرة فوق أرض الجزيرة، من حدود حاجة الانسان الى زرع نفسه فى الأرض التى تفتش عن الانسان لتتبناه.

كل هذه الأقطار التى توصل اليها النزوح، و التسرب، و الانسياب - كما يحلو للوصف أن يسميها - هى انفتاحات جغرافية موصولة المكان بالمكان - عبر البيد و الصحارى - و موصولة الزمان بالزمان - عبر الأيام و الليالى - انها كلها، سجل حياتى لمآتى هذا الانسان، فى عملية موحدة الانسياق، و موحدة الاخراج، و موحدة الاسلوب، جمعها المكان - و جمعها الزمان، و جمعها النهج فى التفتيش، و سيان ان كانت أقطارا لعدة أمم، كما يقول العلم فى تقسيم بيئات الأرض، أم كانت أمة واحدة، كما تشهد لها غزارة الانسيابات من المصدر الواحد - فهى بالنتيجة الحتمية، حدود تكميلية للعالم العربى. الذى تجمعه الى ذاته وحدة فى الأصل، يشهد لها المكان، و يشهد لها وسع الزمان، قبل أن تصبح تاريخا جليل الفهم،و فصيح اللسان.

هذه هى البيئة، بيئة الجزيرة العربية التى كانت - رغم حدودها الكبيرة

[صفحه ۱۰۹]

الكبيرة - صغيرة صغيرة، حتى تكاملت فاصبحت جاهزة للتلبية. تكاملت بالاندماج، تكاملت بالانسياب، تكاملت بالتفتيش عن ذاتها

الحائرة!!! و لكن الرسالة ذات النزعة الانسانية فى الاسلام هى التى جاءت فى حقيقة التكميل الوجودى لهذه البيئة الحائرة على صفحة الأرض لتضمها الى حقيقة الوجود، و هذا هو دور الاسلام فى اعادة فتح مجارى الحياة فى العالم القديم كله.

بهذه العين الوسيعة ألم النبى العظيم بحدود الأمة النائمة غافلة عن كل امكاناتها المطروحة على ساحات الأرض. لقد انحصرت كل اهتماماته فى كيفية جمع هذه الأمة الى حقيقتها، لتصبح فاعلة و حاضرة الوجود. أن يحمل الرسالة، و ان يبلغها، فمن أجل هذه الأمة بالذات، حتى يجمعها، و يوحدها، و يجعلها قوية فاعلة. لا- وايم الحق، لم يغرق الرسول العميق الفكر و الرأى و الخيال، فى خلواته الروحية الصادقة الذات، من اجل تحديد علة الوجود، و صيانة حدود الله جل جلاله - و حسب - ليس الله العزيز الحكيم، بحاجة الى تحديد، بل نحن بحاجة الى التبصر به: فهو المطلق العزيز عن المثال، و هو الشمول الذى لا يلمس له حد فى بداية، أو حد فى نهاية - انما يكون ذكر اسمه تمثيلا فى اجتباء الحق، و اجتذابا الى منازع الخير، و اقترابا من منابع القيم، و كلها مفومات فاعلة فى بناء الانسان المجتمعى الذى يبنيه الصدق، و العدل، و المعروف، و يهده الكذب و الجهل و كل أسباب التخلف، و هى - هذه الآفات - تعيش فى المجتمعات البدائية، و لا تسير بها خطوة واحدة الا الى الوراء الذى هو ضعف، و خمول، و حيرة فى وجود الانسان.

تلك هى رسالة النبى الجليل، بناها على الايمان بالله مصدرا مفتونا بالحق و الخير و المعروف، و هو المصدر الذى يجب أن يغلف الأمة لتكون عظيمة بمصدرها العظيم، لأن المصدر هذا هو الحياة، هو علة الوجود، هو استحقاق الأمة المفتشة عن ملاذها.

من هنا يكون الانطلاق الرحب فى جعل الأمة تدمج المكان بالزمان، و تلونه بقيم تتفتح بها على ميزات رسالية حضارية تجعلها عالمية فى قدسية

[صفحه ۱۱۰]

الشوق، تتآخى بها فى الساحات الوسيعة على صفحة الأرض - و من هنا أيضا كان لرسالة الاسلام التى انطلقت من أغوار هذه الأرض المشرقية ريح ناعمة الحواشى بالحب و السماح و المعروف، وتعشق الخير، والحق، والعدل، و المساواة، مما جعل تراب الأرض كلها ينعجن بها غذاء و حضارة لمجتمعاتها، و اذ تتخلى عنها قيما ييبس بها الوجود فى انخسافات وحشية همجية لا يخلصها منها الا رجوعها الى الدائرة الرسالية الملونة بريح هذا الشرق الكريم.

لقد واجهت الحسن كل هذه الحقائق التى املت عليه هذه المعانى، و هذه المقاصد، و هذه الغايات، لتقف به - وجها لوجه - أمام مسؤوليات جسام ألقاها عليه جده الكبير بالوصاية المختومة بحقيقة الارث الذى هو - بمجرد الحق - قيام على فهم الرسالة فهما أصيلا، و قيام على تعهدها، لتستمر صاعدة نحو مؤداها و مرماها، و من أجل هذه الأمة المطلوبة الى التحقيق، ولن يكون التحقيق عظيما الا- من خلال الأمة العظيمة، و لا- تحصل العظمة الا من وحدة المجتمع و تكامله، ووحدة الفكر، ووحدة التطبيق، ووحدة المصدر... و كلها وحدات يؤلفها العقل و الوعى فى الانسان.

-۳-

من أبلغ المواجهات التى جاءت بانطباعاتها و حفرها فى نفس الحسن، وصول الحكم الى أبيه وصولا ممهورا بدم عثمان. أية ثورة هى هذه الثورة المريضة التى عرت عثمان من قميصه، وحذفته عن كرسى الخلافة، لتشد خصرها الآن، و تأتى راقصة بثياب «الحمس» أمام على بن أبى‌طالب، تستحثه للنزول الى الساحة المعمية بالعجاج: عجاج الغبار، وعجاج الناس العور الذين لا يعرفون كيف يتنفسون الا بعد أن يختنقوا بالغبار الذى يكونون - هم - قد أثاروه - أين كان الاوسيون و الخزرجيون حتى يأتوا اليوم - بعد خمس و عشرين سنة، ليتعرفوا الى فتى الساحة، و يطلبوا نزوله الى حلبة الصراع؟

باسم الأوس و الخزرج،باسم الأنصار باسم القبائل الخاسرة مركزا

[صفحه ۱۱۱]

للزعامة، باسم الخط الحاقد و الرافض القبول ببنى حرب ممثلين بمعاوية، جاءت الثورة تحذف ابن‌عفان، و تتعلق بذيل ابن أبى‌طالب، لا لتنظيف الساحة من الاعوجاج، بل لحذف بنى أمية من الساحة. ان الرسالة بالذات - منذ المبتدأ - منذ دخولها الى ساحات مكة - لم تر صوابا أن تحذف بنى أمية من باحات النصر، بل أرادت أن توحدهم فى عمليات الاندماج، حتى يكتمل النصر بهم لا عليهم - حتى يكون بهم التوحيد الرائع، حتى يشعروا هم - انهم ليسوا فقط الطلقاء، بل هم أيضا الموحدون فى الخط الذى لا يجوز بعد الآن أن ينشق الى مضرى و حميرى، حتى يتأكدوا - هم الأمويون، و كل الزاحفين من هذه الساعة الكبيرة الى التحقيق المرصود - ان خيطان القبائل هى المجدولة الآن فى الحبل المتين الذى يتزنر به فى هذه اللحظة بالذات، خصر الأمة الموحدة و الناهدة الى اكتشاف ذاتها فى حقيقة الكيان.

لو أن الثائرين الذين حذفوا عثمان، والذين يركضون الآن لتولية الامام، ادركوا فعلا، وهم فى يثرب، ثم فى مكة، حقيقة الرسالة، و حقيقة جوهرها، لما كانوا تركوا لحظة واحدة تمر عن عتمة الليل، عندما اطبق الرسول جفنه عن متابعة الرؤيا، الا و كان لهم القرار العنيد بالقاء الزمام الى الامام.

أى تأخير طال الى الآن أمده، ينظف الساحة من الأمويين - ولا أعنى بالضبط بنى أمية، بل اعنى بالاشارة العريضة، كل القبائل الذين راحوا يلعبون فى الساحة لعبتهم القديمة فى التفاف كل قبيلة حول زعيمها للوصول به الى المركز الشهى. ليس وصول معاوية الى حكم يتم بلا التفاف قبلى - ليكون الشد الى زحزحته عن الحكم، مربوطا بالتفاف قبلى معاكس، يتم به النزول الى الساحة، و السيوف مشرعة، و الغبار مثار، و الحناجر مبحوحة: يا لبنى مضر، يا لبنى حمير، يا لثارات العرب.

لقد شاهد الحسن أباه الامام كيف رضخ للتلبية، كأنه قبل بالهزيمة التى لا مفر منها. ليس فى النزول الى ساحات الصراع هزيمة، بل القبول بصراع ليس فيه تحقيق لأية بطولة هو الهزيمة أين هو صراع الامس الذى انتصر على كل

[صفحه ۱۱۲]

قبيلة كانت تنهزم بها جميع قبائل الجزيرة - من صراع اليوم الذى هو احياء الميت و ارجاعه من رمسه العفن الى ساحة النضال؟! هل بامكان الامام الآن أن يتقدم خطوة واحدة من مكانه بلا سيف يستعيره من هذه القبيلة ليضرب به لبان جواد يعتليه فارس من القبيلة المعادية؟ وبالرغم من ذلك تم القبول بنية استخدام الذل للتخلص من الذل - بنية استحضار القبلية للانتصار بها عليها، فى عملية تجديد يستفيق بها الغافلون الى حقيقة تركوها تنام، فاذا هى الآن قذى فى عيونهم تحرمهم الراحة و لذة النوم.

أجل - لقد شاهد الحسن أباه يقوم الى التلبية، و شاهده كيف التجأ الى الحق يقوم به أسلة رمحه، ولكن الخصم الذى كان يلوح بقميص عثمان - لم يكن اذكى، و بل كان أمرن فى استعمال الدنيا، والين فى أخذها بدهاء، وادهى وفى لثم راحتيها و قدميها، و حتى نعلياه - فهى التى كان يرضيها الغزل، حتى الصفاقة فى الغزل - انها الدنيا - انها اللحم - انها الدم، انها الشرايين الزرق التى تتغذى بكل احمر مدفوق عليها بلون اللذاذات المنتشية فى ضلوع الوحش... اين هو الامام على من تناول الدنيا باسلوب عريان من رشاقة الروح و قدسية عطرها؟ من هنا كان لمعاوية استعمال أساليب مبتكرة فى جعل الساحة تنساق اليه، من حيث كان متعذرا على الامام أن يبتدرها، و من حيث كان لمعاوية استعداد مركز فى الشام، منذ أكثر من خمس و عشرين سنة، على هدف مدروس، ولم يكن شىء من ذلك موفورا للامام و هو المنحى عن الحكم أيضا طيلة المدة ذاتها التى ساندت معاوية الى مثل هذا البلوغ - و فوق ذلك، فان

استدعاء معاویة لأیة قبیلة حتی تلبیه، کان فی نهج الامام مرفوضا، لأنه کان یطلب حکما تسنده کل القبائل الموحدة فی الرسالة، لا بعض منها یناجزه البعض الآخر، و یحصل الالتهاء و الغاء القوی، و هدم المجاهید، و زعزعة البناء المادی والروحی علی السواء.

لقد شاهد الحسن کل ذلک یتمثل علی خشبة المسرح - یتسلم أبوه الحکم علی ضیم، و علی تردد مفجع، لینساق الی مجابهة الأحداث المفتعلة،

[صفحه ۱۱۳]

و المصطنعة، و المرمیة رمیا ذکیا الی الساحة - لقد شاهد الحسن أباه یخوض کل معرکة جانبیة، بالم و صبر ممضین: من معرکة الجمل، الی معرکة صفین، الی معارک النهروان - و کلها تهدیم لقدرات الأمة التی جاءت الرسالة لتجمعها و ترصها خطا واحدا فی عملیات التحقیق الموصل الی مجد الأمة و فخارها.

لقد حقق أبوه الامام نصرا فی معرکة الجمل، و لکنه - بالحقیقة - کان انهزاما فی حقوق المفروطة - و حقق نصرا فی معارک النهروان - ولکنه أیضا کان هزیمة نکراء للامة التی اضیعت عن سبلها القویمة، و خسرت رجالها المدافعین عن حیاضها - و حققت نصرا فی صفین، ضاع بین صفحات المصاحف المحرومة من آیاتها الکبیرة الجامعة. لقد ارادها الامام صفا واحدا مشدودا للاسلام و أرادها الآخرون احزابا و أبوابا مفضیة الی الدنیا.

لقد حاول الامام أن یمشی الی الوراء حتی یعود فیمشی الی الامام، طمعا باصلاح الخطوط - و لکن الهزیمة بقیت له بالمرصاد - لقد انبتر الخط - لقد کان عزم ابن‌ملجم أصدق فی تمثیل مفاهیم الجماعات التی لم تثقفها بعد حروف الرسالة!

وجها لوجه وجد الامام الحسن نفسه - بعد مقتل أبیه - أمام معاویة الذی خطط لکل الأحداث، والذی راح یتلاعب - عل هواه - فوق الساحة المقسومة الآن الی الساحتین: ساحة شرقیة قوامها الکوفة و البصرة و ساحة غربیة و قوامها الشام.

جعبة الحکم

وجعبة الحاکم؟ اجل - انها الجعبة التی یجب أن تکون ملیئة، یجب أن تمتلیء جعبة الحاکم قبل أن یأتی الی الحکم - و أن تتابع الامتلاء و هو فی الحکم - و ان لا تفرغ بل أن تزید أیضا، بعد أن یترک الحکم - یجب أن یملأها غیابه من

[صفحه ۱۱۴]

زخم الصدق الذی یکون قد جمع منه کل مواد الحکم، و الا فانها جعبة کاذبة لحاکم کاذب - و أنها أیضا جعبة صادقة بما یکون فیها من التعبیر، حتی و لو أن صاحبها حضرها و لم یصل بها الی مرحلة التنفیذ، فهی له - حتی بعد فوات الأوان - فی الانتظار الرائع لعملیة التطبیق والتنفیذ، و فالمجتمعات الانسانیة تعتمد فی تطورها، و تقدمها، وکل تحقیقاتها، علی کثیر من المناهج، غاب مقترحوها، و مقدموها، و سانوها، و بقی الکثیرون منهم مجهولی الاسماء و الهویة - و معنی ذلک أن التراث الانسانی هو - فی حقیقة الانسان - توارث مجتمعی لا یفعل الا فی صلب المجتمع فعلا تکامليا ملیئا بحقیقة الانسان.

اذا کان الحاکم، وهذه هی صفاته، وهو صاحب الجعبة المعدة أبدا للامتلاء - فأی جعبة عظیمة هی للمشترع العظیم و هی تمتلیء بحکمة الدهور، و نعمة العقل المبرىء من العقل الأکبر الذی هو ثقل الوجود، و ثقل الخلود فی الوجود؟!

علی هذا التحدید التلمیحی نرکز الاتجاه الی رسالتین تعممت بهما هذه المنطقة العظیمة من أرض الشرق، هما رسالتان موحدتان

بالاسلام – جاءت الأولى مكثفة لمبادىء فكرية – روحية – فلسفية – اجتماعية، عاشت بها حضارة السومريين و الأكاديين – الأراميين – الكنعانيين – الفينيقيين المتحدرين جميعهم من أرض الجزيرة الأم، الى الأقطار الواسعة المربوطة بوحدة الاتصال الانسانى الموحد المصدر، و المشترك الانتاج و المصير، وجاءت الثانية مكملة لسابقتها بذات الجوهر، وذات المبدأ، و ذات التأثير الفكرى الروحى الواحد.

لقد كانت الرسالة الأولى هى رسالة عيسى بن مريم – و امتلأت جعبته بمادة واحدة هى مادة المحبة، ايمانا منه بأن المحبة وحدها هى التى تثقف المجتمع الانسانى، اذ تطهره من الحقد و البغض و الطمع، و تطبعه بالخير الذى هو اشتراك فى الانتاج الكبير المبنى على الصدق، و على حقيقة العلم و الفهم، و على تنقية الذات من غرائز الوحش، و على ايلاء النفس جمالا روحيا، تعيش به الأرض فى ظل السماء – لقد شن حربا – بالمحبة على كل ميل يعوج بالشر،

[صفحه ۱۱۵]

و يكذب باسم الله، و باسم المحبة – فاذا كان لاسرائيل أن تتعصب و تتزمت باسم اله لها أسود العينين، و محروق بهشيم من عوسج، فليكن لها من جعبة عيسى منديل يمسح العمى عن عيون المتعصبين المتزمتين، المحملين الناس احمالا ثقيلة و لا يمسونها – هم – باحدى اصابعهم.

لم يجلس عيسى على منصة حكم – و لم يطلب عرشا و لكنه زلزل العروش القائمة على غير المحبة والعفاف، و حكم الأرض كلها باسم الاسلام لله بشريعة الحب – ان جعبته التى هى مليئة بالحق و الصدق و الجمال، ما زالت حتى اليوم تمتلىء – بزخم منه – هو زخم الحق الجميل الذى تحيا به مجتمعات الانسان.

و لقد جاءت الرسالة الثانية، هى رسالة محمد، و امتلأت جعبته أيضا بمادة واحدة، هى طبق الأصل عن المحبة التى تؤلف المجتمع، و توحده بالحق الذى هو مطلب ملىء بالجوهر – أنها ذاتها فى التمثيل المجتمعى – الانسانى – الرسالى، و تصدرها هذه الأرض المشرقية الطليبة الريح الى عباب الأرض، فاذا الأرض كلها تستمر شدها فى صراط مستقيم.

لقد امتلأت جعبة النبى الكريم بكل ما يضمن حياة هذه الأمة، بكل ما يوحدها،بكل ما يجمعها الى ذاتها، من أطراف أيامها الماضية المتعاقدة بالتراث، الى كل يومها الحاضر الراسخ فى الزمان، الى الغد المعزز بالاحلام و الآمال. و لقد افرغت الرسالة جعبتها على الأرض، ونفذت كل أغراضها و مراميها و اهدافها – فاذا هى الأمة تجتمع باسم الرسالة، رسالة التوحيد و الاسلام، و اذا هى تمتد الى الآن فى عمليات التنفيذ – و سيان – احصل خلاف فى أساليب الجمع، أو اجتهادات فى عمليات الاخراج – فان العصور كلها لا تزال موحدة بالاسلام – اتكون قد جاء الحكم فيها باسم الراشدين، ام باسم الامويين، أو باسم العباسيين أو الفاطميين و الاندلسيين، أم سواهم من المحتجين المنتفضين و الرافضين.

لقد جعمت الرسالة الكريمة الانسان الى حظيرتها التوحيدية، و لم تفرق فيما

[صفحه ۱۱۶]

بين الناس، و لقد احتضنتهم منتمين اليها، و يجمعهم الولاء – اذ يصدق و يخيبون الى فرقة اذ يستبد بهم ضياع أو زيغ.

– ۲ –

ماأرهب الساعة هذه و ما أشبهها بالساعة تلك! ان المسافة الزمنية بين الساعتين تزيد خطوتين عن ربع قرن – انها الساعة الحاضرة،

تقف بالامام الحسن – وجها لوجه أمام أبيه الواقف الآن – كالعملاق – أمام رهبة الصمت، مطبقا شفتيه على بلاغة ما نطق بابلغ منها الا ذلك الذى لا يزال مائلا أمام عينيه الممرغتين به صامتا فوق فراش ممدود على الأرض، و مدقوق الحواشى بامجاد الدهور. هناك جده الذى صمت و ما زالت له الكلمة تخفق بروح الحق، كأنها لسان من نار ونور – و هنا أبوه الذى يتمدد أيضا على فراش من خيش و ليف، الا أنه حبك من فصاحة و بلاغة، تعلمان الدنيا كلها كيف تخبز رغيفها المطهر، و كيف تملأ به موائدها النظيفة، و كيف تقتات به بلا شهوة مرة، و بلا ورم يشقى بدنسه.

لله ما أروع الاستحضار الذى ملأ منه الحسن جعبته التى يحملها الآن ليتقدم بها الى الساحة التى تطلبه الى اثبات وجوده كوريث لرجلين ملتحمين فى عملية خلق الجذور من جديد، وربطها بكل مآتيها بحبال الحياة، و جعل هذه الحبال أوتارا يعيش عليها كل نغم حى معبر عن حقيقة الأمة، وحقيقة ارتباطاتها بمقومات الوجود – انها هى اللحظة الكبيرة التى القت على الامام الحسن الشعور البكر بالمسؤولية الجليلة، أنها اللحظة الحاضرة التى يقف بها أمام جثمان أبيه المسجى، تاركا له وحده استلام الزمام الذى خلا اليه فى هذه اللحظة، لحظة الموت!

لقد أدرك، فى هذه اللحظة، ان جعبته التى ما ونى كل عمره يعبئها بكل ما يوسعها و يفيضها على نفسه – انما هى الآن تتعبأ بحقيقة توازى جنى العمر كله. لقد تكشفت له كل الأبعاد التى كان يرمى اليها جده الكبير، جده العظيم، جده الرائى، جده الذى راح يعمل على احتواء الأمة أولا احتواء كليا،

[صفحه ۱۱۷]

و احتواء جزئيا، قبل أن راح يجمع حجرا حجرا مداميك البناء أما عمليات البناء – و أن يكن قد جهز لها حجارات الاساس – فانه تركها لتصاميم الأجيال التى تبتدىء الآن – تحت ناظريه – و تمتد الى الامام، برعاية من ذكراه، ما دامت الحياة تغزل للانسان خيوطها الخضر المزركشة بالآمال السعيدة، و بالنوايا المليحة، و بالهدايات المنورة بالحق، و الملقحة بالمعروف، والمستنيرة بالعقل – عقل الانسان.

لقد أدرك الآن ادراكا واضحا ما كان يقصد جده العليم، من تعيين أبيه على فى مركز الخلافة المميزة بالامامة – و ذلك تجنيبا للمجتمع الطفل، الخارج جديدا من عهده البدائى، و الداخل جديدا فى البوابة التى تطل به على الباحة التى يتركز فيها مجتمع الانسان. لم يكن ذلك – مطلقا – من اجل الاحتفاظ بزعامة لبيت كريم – هو منه الجد الكريم – أن الذى يهتم بشأن المجتمع الواسع، لم يضع نصب عينيه احتجاز زعامة لبيت واحد من بيوت الأمة التى تتألف من ملايين البيوت و من ملايين السنين، الى المجال الذى لا ينتهى – لا، و قسما بالحق – لم يكن ذلك ليتراءى أمام خاطر المشترع العظيم الذى يحتوى الجزيرة كلها، والمجتمع كله، و التاريخ كله الذى بنيت و تبنى به حقيقة الأجيال – انما كان ذلك من أجل صيانة المجتمع الناشىء من فوضى يجب أن تذوب منه، و هى التى اضنته طويلا وهى التى – ما بقيت – ستضنيه بلا انقطاع. ان مجتمعا لم يتثقف بعد، أو فلنقل – لم يتحضر بعد، لا يجوز أن يعرض بناؤه الجديد لهزات ارتجاجية، تحركها عليه عمليات انتخابية، ليس فيها، لا وعى، ولا المام، ولا مجال ثقافى ظاهر التركيز – عندما يتهيأ له ذلك فى مداه الصحيح، فليكن عندئذ للحرية الجديدة النابتة من ثقافته العامة، ومن حقيقة الصواب، أن تستفيق الى ذاتها العاقلة و تعمل الى تعديل مواقفها.

لقد أدرك الامام الحسن الآن أن المجتمع الذى لم يتقيد بالطاعة، وراح الى مخالفة الرأى و الاقتراح – وقع فى المحذور، و بدلا من أن يبقى خط الخلافة ناعما بالاستقرار، و مستمرا بعمليات البناء المركز، بعيدا عن التشويش، جاء

[صفحه ۱۱۸]

کل خلیفة جدید مجذوبا الی مرکز الزعامة بقوة انتخابیة لم تحققها الا المبایعات و لا تعنی المبایعات الا تجمیع القبائل التی لا تحرکها الی الجمع الا- اثارة الأحقاد، و تحریک الحزازات و العصبیات، و تلک هی الفوضی، بدلا من أن تجمع الشد، تلغیه، و بدلا من أن تجدل الحبل، تقطعه، و بدلا من أن تنشیء العمران، تهدمه، و بدلا من أن تحقن الدم، تهدره، لقد حصل کل ذلک - لقد حصل منذ اللحظة الأولی التی اخطأ فیها عمر بن الخطاب قراءة نیة الرسول الحکیم، فأول اسناد الخلافة الی علی، بأنها أحیاء لزعامة البیت، فابعدها عنه، و هذا کان أول خطأ تاریخی یرتکبه سوء التأویل، و سوء الظن، و سوء النهج الذی لم یقض علی القبلیة، بل ترک لها نزا تتنفس به الی التفریخ الذی یسمم الجذور، و ییبس الأغصان، و یمحلها من رونق الاخضرار، لو أن ابن‌الخطاب کان یجید القراءة لما کان هکذا قد تصرف - ولکنه تصرف، دون أن یکون له أن یقرأ النتائج - لقد کانت فی عهد عثمان بن عفان طلائع النتائج - لقد عاشت من جدید قبلیة بنی أمیة، و قبلیة بنی أمیة معناها استنجاد بخط معین ضد خط معین اخر، فرط الوحدة، و قسم المجتمع، و نال کثیرا من مداه.

أما وصول الامام علی الی الخلافة بعد القضاء علی عثمان، فهو وصول ضعیف الرجاء - انه وصول ضاعت فرصه منذ زمن طویل - لقد خسر کل مؤدیاته، و کل امتیازاته، و کل معانیه الترکیزیة، وکل لزومیاته البنائیة التکاملیة و خسر کل احتیاطه فی التدارک و لقد جاء حساما مقصوفا فی الساحة المریضة التی أصبح یلم بها الخور، لهذا فانها خلافة عاشت فی الهزیمة و ماتت فی الهزیمة - لقد ترکت فقط عبرة کبیرة: بأن المجتمع الذی یخسر جوامعه لا بد أن یسقط فی المعاناة، وأن المثل وحدها هی التی ستعود فتحمیه اذ یهتدی الیها.

کل ذلک قد أدرکه الآن الامام الحسن، و هو ملفوف بالصمت المخیم فی جو القاعة المسجی فیها أبوه. ان الجعبة التی هی له، و التی جمع الیها کل مجتلیاته من العمر، یختصرها کلها مما یستوحیه من روح جده المهیمن الآن فی القاعة المليئة بکل وجوده، و کل غایاته و مقاصده - ان المجتمع العظیم هو کل ما

[صفحه ۱۱۹]

بان و کل ما استتر من مقاصده - اذ زال هذا المجتمع العظیم - ولا یمکن أن یزول - لا یعود للنبی العظیم وجود - شرط فی الوجود مربوط بشرط - ایجوز أن یضمحل الانسان من الوجود و یبقی لاله الخلق تصور؟ کل شیء فی المجتمع هو امکانیة انسانیة فریدة و عزیزة الخلق و الابداع، و لا شیء سواها یحقق علی صفحة الأرض، اللهم الا بارادة هی العزیزة فی الادراک.

کل ما فی جعبة الحسن هو الاهتمام بالمجتمع، حلم جده، و أساس رسالته، و مهبط وحیه - فاذا کان له أن یستأنف السیر علی خطی أبیه، فلتناول المحاولة فی الاصلاح و الترمیم - أما الهزیمة، فسیکون له أن یری کیف یحولها نصرا للأمة التی یضنیها الصراع و ینفعها، من أجل الوصول الی أی تحقیق - و لن تکون الهزیمة الا- نوعا من أنواع الصراع الذی یبین الخطأ حتی یکون تجنبه فی الیوم التالی بوابة الی نوع من نصر یجنی منه المجتمع کل محاولاته الی البلوغ.

المبایعات

و المبایعات؟ انها الطریقة القدیمة المتبعة عند العرب فی جمیع قبائلهم المؤلفة من بطون و أفخاذ - لقد کانت المبایعة تعبیرا عن جمع رأی کل قبیلة بمفردها حول زعیم لها یدیر شؤونها، و یحکم فی قضایاها، و یدبر أمورها - و کل ذلک حسب عادات و تقالید تخضع

لها طرق العيش. لقد كانت المبايعة تعين الزعيم، أو توليه أمر القبيلة التى تتعهد له بالطاعة. أما أن يكون الزعماء أو شيوخ القبائل كثيرين، فان ذلك عائد الى كثرة القبائل التى يتعين لكل فخذ منها زعيم يتصرف بمقدراتها، وكل شؤونها. ربما كان تعيين كل صنم من الأصنام المشرورة فى الكعبة، أو فى الأحياء الموزعة فى أغلبية المدن من أرض الجزيرة، نتيجة مبايعة له رسخته الها يدير شؤون الحياة فوق تلك الأرض.

معنى ذلك أن المبايعات للزعماء، و اخضاع الناس لهم بالطاعة العمياء، كانت نظاما بدائيا استبداديا، يقسم الأرض الى زعامات، ولم يكن له - و لا

[صفحه ۱۲۰]

مرة - ان يجمع الأرض كلها لزعيم واحد يمثلها، وينظمها، و يوزع عليها الادارات. قد يكون أن حصل شىء من هذا على أيام الهاشميين - مثلا - فتعين نذر قليل من التنظيم بما يشبه التكشيل الادارى. الوزارى، كوزارة السقاية أو وزارة الرفادة... و ضبط مواعيد الرحلات الطويلة فى الصيف، أو فى الشتاء الى الجوار، الا أن ذلك كله لم يجمع دولة، و لم يصنع حكما له دلائله الحضارية المحترمة. لقد كان المجتمع العربى كله موزعا على زعامات قبائلية، يحصل ما بينهم التقاتل على تقوية كل زعامة بمفردها، على غيرها من الزعامات الموزعة على عدد القبائل. لم يكون للولاء مفهوم يجنى منه المجتمع بل أن الولاء كله كان - فى قبيلة الواحدة - لرئيسها المسن، أو لشيخها المتزعم، دون أن يكون للأفراد حق الاعتراض أو حق اثبات الوجود - لقد كان الفرد رقما مفردا فى العدد الذى تنطق به لفظة المئة أو لفظة الألف. فليكن المجتمع مركبا من ألف قبيلة، هنالك - اذا - ألف زعيم فى مجتمع واحد،أو بالأحرى ألف زعيم على ألف مجتمع، و هذا معناه: مجتمع واحد مفروط الى وحدات، لا معنى لها كلها فى ثقل الميزان.

ان الذى وحد المجتمع و أعطاه ثقلا فى كفة الميزان، هو الذى دخل مكة، واحتل الكعبة، و حطم فيها مئات الأصنام - أنه هو الذى جمع القبائل، و وحدها فى زعامة واحدة، و محى من الاستعمال كلمة «المبايعة» التى تعنى رجوعا الى معناها القديم، و هو احياء الزعامة القبلية التى قضى عليها التوحيد، و محتها الرسالة من قاموس المجتمع الجديد. الا أن كل مبايعة تحصل اليوم، هى جاهلية تمتهن المجتمع و ترده الى أسباب تفسيخه، و تعمل على تهديم بنائه المؤسس جديدا على نظرة فى الحق تمسحه بكل حضارة يبنى بها مجتمع الانسان.

- ۲ -

و لكن الرسالة، و رسالة التوحيد و الاسلام، ولم تقصد أبدا حذف القبائل من وجود الجزيرة - فلنعد القول هذا مرارا و تكرارا - انما كان القصد تنجية القبيلة من قبليتها، تنجية الانسان من غريزة الوحش فيه، تماما كى تبقى

[صفحه ۱۲۱]

الأظافر فى الأصابع لحماية الأصابع من تجريحها، لا لاستعمالها كما يستعملها الذئب أو النسور و طيور الباز - ان العقل وحده يدافع عن الانسان، لا أظافر كفه، و نواجز لا تنبت الا فى فك الحيوان - المفترس من الحيوان. تلك مفارقات فى حقيقة بنية المجتمع المعد لأن يكون انسانيا متطورا و محققا ذاته فى الوجود.

ان تقترح الرسالة، أو فلنقل: ان يتمنى الرسول ذاته، صاحب الرسالة، ان يكون الخليفة من بعده مخصصا بانص أو بالتعيين، فذلك كان منه قصدا بعدم استعمال المبايعة - فلفظة المبايعة لا تحمل الا معناها، وفى معناها كانت كل أصنام الجزيرة و كل حزبياتها اليابسة، و

کل تقالیدها البائدة، التی فیها المیتة و الوأد،و رقص الجن و السعالی - لقد کانت المبایعات تعنی، فی قاموسها العتیق البالی، رجوعا الی المراعی القاحلة، رجوعا الی ألف ثار و ثار، رجوعا الی الدماء و الولوغ فیها، رجوعا الی ألف فتنة و فتنة، و ألف قبیلة و قبیلة، و عشرة آلاف حزازة من حزازات الصدور العفنة بجهلها و أوهامها، و رجوعا الی قبائل مفککة تربطها حبال الاطناب و لا تقیها من حرارة الشمس و من عنعناتها المحروقة بأکبادها.

أما الرسالة التی حزمت أمرها، و بثت بثها الشاقی: فانها بقیت تنتظر المجتمع السلیم الواعی - أما أمنیة الرسول التی عصی بها الأمر: فأنها بقیت مجمدة للتنفیذ: بأن المجتمع الذی لم یتثقف بعد بمحتوی الرسالة، فان المبایعات تبقی أبدا تأکل مجاهیده الی أن یضنیه الکلل، فیرمی بکل قبلیة فیه الی النار التی لا تأکل الا ضلوع ابلیس - و لا ینفخ فی نار جهنم الا الذین یعیشون علی الطائفیة القبلیة المذهبیة، و الرجعیة الحزبیة، و کلها تقتات بها زعامات ضیقة تنتفع أبدا بالتخلف - أما المجتمع الصحیح، فهو الذی ینبذها مدرکا أن المجتمع الراقی هو المجتمع الموحد بکل ما فیه، و بکل ما له و منه، و بکل اشارة تشهد له بصدق انسانه فی الحیاة.

- ۳ -

منذ نال الصمت شفة الرسول الکریم فامتنع عنها البث والتلمیح،

[صفحه ۱۲۲]

أصابته موجة الجفاء. فان کانت له الأمنیة بأن یکون الامام علی خلیفته، فان تعیین سواه کان استنجادا بالقبلیة حتی تعود.... ان رفض القبول بجمع الخلافة والنبوة فی بیت واحد، کان - ضمنا - استدعاء ملحا للقبلیة أن تعود فتثبت مرکزها العنید. کل ردة هی مرکز ثابت للقبلیة. ان تعیین أو انتخاب شخص آخر للخلافة هو - بحکم الطبع - من بیت آخر، أو بالتأکید، من القبیلة الأخری التی لیس منها شخص النبوة. الا تکون هکذا المبایعة لشخص، فتوصله الی کرسی الزعامة؟ لقد کانت کراسی الزعامة کثیرة العدد فی عهود الجزیرة - أما مقعد الخلافة، خلافة النبی، فهو الآن جدید و واحد لجمیع القبائل، و لکل أهل الجزیرة، ولکل سکانها المقیمین، و المتفرعین منها بالتمدد التاریخی و الحاصل أبدا الی کل جوار - لذلک فان المبایعة التی تحصر المرکز بشخص واحد هی بالغة الخطر بعدم التأکد من الحصول بالاجماع علی شخص واحد مؤهل للقیادة - فاذا حصل الآن اتفاق فی اجتماع السقیفة، فلیس یعنی أن اجتماعات الغد الآتی سیکون لها ذات النصیب - فالقبائل التی سیستنجد بها بنو أمیة، ستکون سقیفتها من طراز غیر الطراز الذی بنیت به سقیفة بنی ساعدة و ستکون السقیفة الأخری التی سیجتمع بها طلحة أو الزبیر، أوسع مربضا للجمال التی ستحضرها عائشة أم المؤمنین، لخوض المعارک الجانبیة فی الکوفة والبصرة.

تلک هی شؤون و شجون، سیلتجیء الیها خط المبایعات، من حیث ینشأ الهرج و المرج، و تتصارع القبائل مجدولة حول زعمائها النازلین الی الساحة لیکون لکل واحد منهم خلیفة بعدم التراضی، و بعدم القبول و الرضوخ لزعامة أخری، و ستصبح الخلافة اثنتین، و ثلاثا، أو ربما عشرین أو أکثر... ألم یکن لکل قبیلة زعیم یدیرها و یرعاها فی الملمات! ها هی الخلافة، بعد ثلاث جولات، أصبحت خلافتین: واحدة فی الکوفة تجمع العراق، علی خط معین، و أخری هی الآن تبسط نفوذها علی ربی الشام. أما غد الشام فمرتبط بخیط فاصل بین المضریین والحمیریین، اذا ینقطع فیا لحظ الشام منه منفرطا الی انقسام! أما المدینة و مکة فی أرض الحجاز، فان خطوط القبائل

[صفحه ۱۲۳]

فيهما بانتظار ساعات حتى تعود الى النبض وقرع الطبول.

أتكون الرسالة التى اجترحت الأعجوبة المعجزة، و جمعت الأمة من كل حواشيها المنظورة و غير المنظورة الى وحدة رائعة المصير و رائعة التعبير، تقف الآن حائرة على المفرق الملتاع، تصنع نفسها على المفرق المعوج، و تعمل على بسط ذاتها فى وسط الساحة، و تقدم ذاتها مصدرا صالحا يغرف منه الجميع ثقافة معينة تصطلح بها النفوس، و تطيب من اخطائها، و تعدل خطواتها فى السير الموصل الى حقيقة جمع الأمة جمعا موحدا يمكنها من قوتها المنتجة و، يبعد عنها خطر الانزلاق؟

- ۴ -

كان الزعيم الانصارى قيس بن سعد أول المبايعين للامام الحسن:

- أبسط يدك أبايعك على كتاب الله و سنة نبيه و قتال المحلين.

و كان جواب الامام كثير الاختصار و بليغ الدلالة:

- على كتاب الله و سنة نبيه - فانهما يأتيان على كل شرط.

و كانت البيعة من الكوفة، و أهل البصرة، و أهل العراق، و المدائن، و أهل فارس، و جاءته البيعة من الحجاز، و من اليمانيين، و لم تبايع عائشة أم المؤمنين، و لا بنو أزد، و لا بنو ضبة، و لا بنو أمية، و لا أحد من أهل الشام المسحورين الآن بامجاد معاوية..

من هم الطارحون بيعة، و من هم الحاجزونها؟ و هل هى بيعة لخلافة؟ أم هى بيعة لأخذ ثأر! فان كانت لخلافة - فأين هو المخلوف منها؟ و أين هو كتابه من الذين يقرأون؟ و أين هى سنته من الذين هم المؤتمون؟ متى خضعوا خاشعين فاهمين؟ و متى آمنوا مكبرين معظمين؟ و أين كانوا يتلهون منذ ثلاثة عقود؟ و اذا كانت لأخذ ثأر - فيا لتعس الأمة من المثأور له و من المثأور منه - يا ويل أم القرى، و يا ويل يثرب! يا ويل اليمن و يا ويل الحجاز! يا ويل الجزيرة

[صفحه ۱۲۴]

الأم، تتعب الحقب و الدهور فى تنشئة ابنائها، و أحفادها، و كل أجيالها المندثرة، و أجيالها الطالعة و الفخورة الآن بكتابها الجديد الذى هو لها فى الصف الأول من الكتب السماوية - يا ويلها تعود الى قراءة عتمات لياليها المصبوغات بثارات بنى كلب على بنى قيس! يا ويل البصرة، و يا ويل الكوفة، و يا ويل العراق - عراق دجلة و عراق الفرات - عراق الخصب و عراق السواد - يا ويلها من الوافدين اليها على أمل أن يشاركوا فيها بعمارة الأرض، ورص العمران فى حضارات زهت بها - فى القديم - سهول ما بين النهرين، وتوزعت على العالم نورا و هدايات - يا ويلها من الوافدين الجدد يمدونها بنعمة الله فى كتاب، و بسنته فى دستور يطبع المجتمع بالحق، و يفتح له اقنية لا تضيع بها الدنيا فى معالجاتها سبل الحياة - يا ويل العراق - بدلا من أن تترسخ لها الديمومة فى الاستقرار و التنعم فى انفتاح الأمة على جميع الأقطار فى معاطاة كريمة البذل و كريمة الانفتاح، و اذا هى تقع فى خلاف على خلافة، تفسخ دجلة عن الفرات، و توسع البادية على يباسها و قحلها، لتكون حاجزا عريضا بين أرض الرافدين و غوطة الشام! ما كانت العراق أرضا يتزاحم عليها المبايعون بالخلافة: عشرات القبائل من هنا لطلحة، و عشرات القبائل من هناك للزبير، و فئات من هنا و هناك، ينامون على ضيم يطالبون بالامام على و يساندونه، و فئات من هناك يجمعون الشام و خيراتها لتأليف جيش ضخم زاحف ليقطع الخلافة عن الجميع ليجمعها فى عب رجل اسمه معاوية!

فى هذه الليلة، و الامام على مغف غفوة طويلة الصمت على نصلة سيف أوصلها الى أحشائه ابن‌ملجم - كان الامام الحسن يستعد لأخذ مبايعة له تجعله خليفة على المسلمين و حتى يقوض خلافة ثانية يمهد لها عريضا فى الشام، معاوية بن أبى‌سفيان.

[صفحه ۱۲۵]

اى كرسى هو الحكم

لقد أصبح الكلام الآن كثير التوجيه اليك أيها الامام - لست أدرى ان كنت أنا الذى يطرح السؤال عن المعنى المخبأ فى كرسى الحكم، أم انك أنت بالذات توحى الى البحث فى ماهية الحكم، و من أى خشب تصنع قوائم الكرسى الذى يجلس عليه شخص الحاكم، و لكنى أرى، و أسانيد التاريخ تنقل الى - انك لم تحكم - بضعة أشهر فقط، و تنازلت عن الحكم لمصلحة ألد عدو تاريخى لك، عمل على صقل مئة خنجر صبها كلها فى صدر الامام أبيك، و طبخ لك قدورا من السم، ما ونى يبخها فى كل جو تتنفس فيه رئتاك، حتى أرداك أخيرا مسموما فى زاوية بين لك فى مدينة يثرب! و نام قريرا تحت قبة قصره الأخضر فى الشام، مثبتا لاصلابه من بعده - كرسى ملك، خشبه من الأبنوس المطعم بالماس، و الذهب، و كل أنواع الحجارة الكريمة.... يا للصولجان الذى يزهو بغلال الأرض، ودرها، مجبولة باعراق الناس، و بكل جهد ينتجه العقل، و العلم، و زنود العمل! و كلها تتحول الى ألوان يصطبغ بها هذا الصولجان - صولجان الحاكم - تمييزا له بالعنفوان المقتدر على صياغة كل شىء له، فى ابراز مجده، تلذذه فى اشباع شهواته و التنعم بها وسيعا و فى الدنيا، و كأن الدنيا و ما فيها من تراب و شمس و سحاب - انما هى له مبذولة تحت قدميه، لا يجمعها الا بكرا له فى التمتع الشهى الذى يبتكر، و فى كل لحظة، لذاذة جديدة لا تريد أن تشبع، و لا تريد أن ترتوى، و لا تريد أن تنطقى.

هذا هو نقل التاريخ عنك - كأن التاريخ آلة فقط تأخذ ما يقع تحت عدستها، دون أن تقلبها من ظاهر الى باطن، ومن باطن الى باطن آخر، ربما تختفى فيه لؤلؤة لم تحلم أن ترى مثلها عدسة العين.

هذا هو شأنك مع التاريخ، و مع المؤرخين الذين لم يروا، أو لم يريدوا الا هكذا أن يروا، مع أن التاريخ - فى حقيقته العظيمة - هو أن لا يكون فقط

[صفحه ۱۲۶]

مجذفا بسيطا على ظهر خشبة، بل أن يكون أيضا غواصا الى القاع، و الا فحرام أن يركب سفينة و يتسلم خشبة مجذاف.

فعلا - أنت لم تحكم أيها الامام - لا معنى لحكم يطول بضعة أشهر و يذهب مع الريح - ان الحكم هو مراس و مران - انه علم و اطلاع و فهم ورويه - انه - أولا - ادارة الذات و فهمها، و الغوص فيها، حتى يصلح لأن يكون ادارة جيل من الناس. أما أن تحكم بضعة أشهر ثم تتنازل عن الحكم، فان ذلك، أيها الامام،كان مربوطا عندك بقصد هو التمهيد للوصول الى نوع من الحكم يكون هو الأقوى و الأبعد و الأثبت، و هو المبنى على نظرة صحيحة و جليلة، لو أن التاريخ تلقط بهذه النظرة عنك، لكان لنا الآن أن نحترم التاريخ الذى يتمكن من الرؤيا، و من تسجيل القرارات.

و لكن - بالحقيقة - أنت الذى تمرست طويلا بالحكم أيها الامام - لم تجلس الى كرسى له قوائم و عوارض من خشب، ولكنك توصلت و جلست فيه مملؤا بمعانيه الجليلة، مغمورا غمرا بكل الأحاسيس و المشاعر، و المقاصد التى تغنى النفس و تشحنها بنبل المرامى التى تخلق الانسان و تصون حدوده بالابعاد، و هى التى تبقيه حيا فى انسانية تتألف منها عبقرية المجتمعات الخالدة فى مرابع الحياة - فليسمح لنا نتأكد من كل ذلك، اذ نستعيد قراءتك من جديد، فأنت عظيم أيها الامام، و أنت جدير بكل درس ينشرك على الحقيقة التى لا نزال نترقبها تلمنا الى دنيانا الصحيحة فيزهو بها مجتمعنا العظيم المبنى للوصول الى كل عظمة.

- ۲ -

أساسا، أنت مدعو للحكم، أنت امام فی ضمير جدك قبل أن تولد - وبعد أن ولدت أصبحت قرارا فی حزمة من الشوق المبارك - هنيئا لأمك بك، فأنت نسيج من خاصرتها الموصولة بخاصرة الحق - و هنيئا لأبيك بخيوط الارتباط، تشده الی جدك بوجد لاينسل له خيط - و لقد علمت أنت بذلك - أخبرتك أمك، و أخبرك أبوك أنك أنت من البيت الذی هو - بحد ذاته -

[صفحه ۱۲۷]

قضية، و لقد فهمت مليا أنك أنت القضية - بالحس الضمنی فهمت، و من عطف العين و الحضن و اليدين فهمت - و من التصرف الكبير الوسيع الحد و البليغ الاشارة فهمت - و بالتعيين و التخصيص فهمت، و أبلغ ما فهمت، عندما وسعت عينك، و رشد لمحك و فهمك: ان الذين كان عليهم أن يفهموا ما أرادوا أن يفهموا، و ان الذين قصدوا أن يسمعوا لم يريدوا أن يسمعوا - و لقد فهمت أيضا لماذا لم يريدوا أن يفهموا و لماذا لم يريدوا أن يسمعوا.

لم تكن تعرف، عندما اغمض جدك جفنه، انك مدعو لخوض غمار العصر، و الكشف عن النوايا المخبأة فی الصدور، و الاطلاع بكنه قضايا النفس، و الوقوف علی أسرار الوجود و العمل علی اكتناهها، و التثقف بكل ذلك حتی يتم لك التمكن من الوصول الی تحمل المسؤوليات الجسام التی تلقيها علی منكبيك اعباء الامامة التی ادركت فعلا أنك لها بارادة التعيين، و ارادة التخصيص، وارادة النبوة.لقد كشفت كل ذلك باحتكاكك المتين بأبيك الكبير الذی كان ملاذك، و كان عملاقا أمامك، و كان حفارا فی بنائك، و كان قدوة أمام عينيك و أمام فكرك و أمام خيالك، و كان كتابك، و كان حرفا كبيرا فی كل كلمة من قراءاتك، و كان جلوتك المضيئة، و كان ارادتك الخفية، و تصرفك الذی لم يعلن بعد، ثم انصهرت فيه فلم يكن لك عنه لمحة من انفصال.

لم يتناولك التاريخ بشیء من هذا الوصف و بهذا التحديد، و بهذا الربط الأصيل - لأن التاريخ لا يحاول كثيرا شد حقويه بالمنطق، و يرضيه السرد الضئيل، دون أن يستهويه النزول الی عمق خلف كل تحليل وتعليل، هل هی خلة عند التاريخ؟ أم هی كبوة فی قلم المؤرخ، أم أنها - فی نيته النائمة بين ضلوعه - شرخ من شروخ النفس، تلبس الغرض و تمشی به بلا مبالاة.

جل ما فی الأمر أيها الامام أنك لم تقدر أن تلبس الا ـ قميصك المتصل بك - لم تكن تعرف فی المبتدأ أنه قميصك - أو أنه قميص أبيك حتی ينتقل اليك، و لكنك أصبحت تعلم ذلك مع تقدم خطواتك علی الطريق. لقد أخذت بحس أن أباك الامام هو الأولی من أبی‌بكر، ولكن أباك تمرس أمامك

[صفحه ۱۲۸]

بالصبر علی الحيف، فبدأت تكبر حروف الأمثولة أمام عينيك - و لما انتقلت الخلافة من جديد، و عادت فعلا الی عمر بن الخطاب الذی هو فارسها المتلاعب بها فی الساحة الخرساء، قرأ عليك أبوك امثولة ثانية فی تحمل الضيم، كيف أنه يقرع النفوس و يجلوها الی عمق، و الی كبر، ورحت أنت - بعين أوسع و بصمت و تأمل - تلمح كيف أن الدروب تتغير بها الخطوات الی انتقال فی السير، تمحی به المعالم، و تتحول الأهداف الی منطلقات أخری تتشوه معها كل المقاصد.

عندما أصبح عثمان بن عفان فی دست الحكم، اصبحت لك العين، و هی المدغومة دائما بعين أبيك - ترى بوضوح أكثر، كيف أن الحبال الملعوب عليها هی للرقص،أكثر مما هی لحقيقة الحكم، و أن الحكم الذی يجری تحت عدسة عينك، هو تماما علی نقيض ما هو مرسوم فی تصورك، أو مهيأ فی بالك - و عندما رحت و أنت موجس خيفة مما تشاهد، تسأل أباك الامام توضيحا يخفف عنك هما و شجنا، اغمض عينيه عن عينيك حتی لا تقرأ فيهما ما يعييك! من هنا أصبحت تدرك جسامة الأحداث، و أن تنحية أبيك عن

الحکم ما کانت بالأمر البسیط، و لا بالخاطر العابر، انما هی بالقصد المدروس، والاخراج الذی اشتغل به العقل و الفن - ان الفترة التی مرت علی حکم عثمان، لم تبعده - بالموت - عن الساحة الا بعد أن وسعت الساحة و صیرتها میدانا لبنی أمیة.

فی هذه الفترة بالذات، وقد غیب الموت ابن‌عفان، و قد امتلأت الشام بمعاویة بن أبی‌سفیان - أصبح أبوک بالذات یفتش عنک، حتی یغرز عینیه فی عینیک، یستجلی فیهما رأیک الغنی فی مراقبة الأحداث، و ما هی ردة الفعل لدیک - أما أنت فصرت بدورک تغمض عینیک عن عینیه، حتی لا یری فیهما أثرا لأی صدمة خلفتها فی النفس سلسلة من الخیبات... لکن الامام أباک الذی قرأ فی تأملک الهادی عزما للروح فیک، لیس هو الا متین الحبک و متین الخیال، قبل أن ینزل الی ساحة الجهاد، عساه یتمکن - بالمحاولة - أن یرد ضیما عن بنی طالب یعرضهم لتهدید خطر جسیم -و عساه یعید للحکم هیبة تقیه من

[صفحه ۱۲۹]

وطأة و الدنیا و فورانها، و عساه یرید الی الدنیا ما یطیب الذوق فیها و ینقیه من الأملاح - ولکن ابن‌ملجم کان فی المرصاد.

- ۳ -

لست أدری لماذا یکون علی الأدیب - مثلا - ان یفسر الأحداث، و لیس علی التاریخ أن یفعل ذلک؟ اتکون مهمة التاریخ فی التلمیح الضئیل، دون أن تکون له قیمة فی التحلیل و التعلیل؟

لقد ذکر التاریخ - بکل بساطة أیها الامام - أنک تناولت الحکم لبضعة أشهر، ثم غسلت یدیک منه - هکذا - کأنک تغسلهما من قطعة حلوی کنت تأکلها و انتهیت،کأنک لست من الحکم بشیء و لست له بأی شیء.

و لقد ذکر التاریخ أیضا أن وصولک الی الحکم کان بعد مبایعة رصت الیک الصفوف، فما کان منک الا أن اهملت مبایعیک و ترکتهم وحدهم فی طرف المیدان، ورحت تتصرف علی هواک.

أی معنی لک أیها الامام اذا کان مثل هذا هکذا قد حصل؟ و لماذا أنا الیوم - بعد أربعة عشر جیلا - أقف واحدا فی الصف الطویل من المحبین لک و المتهیبین - انی أری أن خفة السرد فی التاریخ منقصة فی حق الذات الانسانیة الشریفة، و تقلیل و تخفیف من قیمة الرجال الأفذاذ الذین یجاهدون فی نحت حجارة الأساس، لبناء مجتمعاتهم الانسانیة العظیمة، و الامام الحسن هو واحد من بین هؤلاء النادرین الذین عملوا بعقل و صمت - و صمتهم العظیم هو الذی یفسح لهم الآن بالشهادة.

انک فی الظاهر أیها الامام، وجهت الحکم لبضعة أشهر، و تنازلت فعلا عن الحکم لمصالحة معاویة بن أبی‌سفیان، و لیس مطلقا لمصلحته بالذات. أما الحقیقة التی هی أساس فی تکوینک الذاتی الموجه، فأنت للحکم الطویل المرسوم و المعین، أی: أنت امام «قمت أم قعدت» لم تسندک السیاسة، سیاسة البیئة أو سیاسة العصر، حتی تقوم الی مهمتک الجلیلة، فقعدت عنها،

[صفحه ۱۳۰]

مغلول الارادة، دون أن تغفلها حقا من حقوقک، أو لزوما فی ضمیرک و وجدانک. لهذا کان تمرسک فی الحکم تمرسا ضمنیا متکاملا فی ذاته، و متکاملا فی تحمل مسؤولیاته تجاه الأمة التی أنت بالذات منتدب للاهتمام بکل شؤونها.

من هنا کانت رقابتک علی کل الأحداث الموصولة بکرسی الخلافة، رقابة مسؤولة و محتکة، تجمع منها مادة الحکم الصحیح المنزه و المعصوم عن الخلل و الزلل. لقد کان أبوک ذاته فی الحکم -أکان قائما فیه أم کان عنه منحی - انه أنت فی ذاتک الصحیحة، و أنه اکتمالک فی التحامک فیه، و فی انتدابه علیک حتی تظهر بک الولایة. من هنا بالتمام، أنک عشت العصر و رافقته حتی انتهی بابیک

الى مأساة!!!

و بالحقيقة أيضا أن العصر الذى انتهى بموت أبيك لم ينته بك أو اليك، بل توقف عندك، حتى تكون له بداية أخرى، لم يكتب لها بعد أن ترسخ عهودها، و عند ذاك - بالتأكيد - سيكون لنا أن نقول: و أنت الركيزة الصحيحة فى بناء المجتمع الصحيح، فى نظرة امامية تفى ذاتها حتى تعيش فى المجتمع الكبير الذى هو وحده قيمة الانسان، و مجد الانسان و روعة الانسان. أما توضيح ذلك، فله دوره بعد حين.

نعود الى التاريخ، و محاسبة التاريخ على قوله أنك وصلت الى الحكم بواسطة المبايعة. اجل - و لكنك لست أساسا لتقبل بمبايعات من هذا النوع، فأنت - فى صياغتك الكبيرة، و فى حلم جدك العظيم، و فى كينونة أبيك المنحى منذ البداية عن الحكم - لا تقر بمبايعة تجردك عن امامة و تنحدر بك الى مساندات جانبية تستنجد بها حتى تفسخ الكوفة عن البصرة، و دجلة عن الفرات و ما بين النهرين عن مفارش الغوطة، و اليمن عن الحجاز، و مكة عن مدينة يثرب - فليكن قبولك بالحكم - و فى مثل هذا الظرف العصيب بالذات توسيعا لفسحة من الوقت، تلملم فيها نفسك الى جمع ارادتك و قدراتك، و سيكون لك قرار متخذ من صلب القضية - قضية جدك فى رسالته العظيمة، و قضية أبيك الساقط جديدا و متعبا فوق أرض الميدان - يثبت أنك بمستوى صناعة القرار.

[صفحه ۱۳۱]

- ۴ -

أيها السيد، أيها الامام - و ليسمح لى التاريخ أن أقول: أيها العظيم.

انى أقر الآن أمامك، و أمام حقيقتى فيك، و أمام الواقع الرائع الذى نبت أنت منه - انى لم ادرك أنك عظيم الا فى الفترة الصغيرة التى وصفت بأنها بضعة أشهر ضئيلة جلست فيها الى كرسى الحكم، و ما انسحبت منه الا و فى حوزتك القرار - كأنه قصبة السبق التى ينتزعها الى يمينه الفارس السباق من طرف الميدان.

هنالك بطولتان حققتهما مترابطتين فى المعنى و فى المغزى: الأولى هى تنازلك عن حكم يتسابق عليه كل طامع طامح و لا يتخلى عنه، و لو كلفه ذلك بتر الوريدين - ايه لعمرى، كم يبذل الطامحون الطامعون فى سبيل كرسى لا ليعدلوا به بين الناس، بل ليستذلوهم به الى أبعد من الخضوع و الرضوخ و السجود - انهم السادة، لا العادلون الصائنون حدود العباد، بل انهم المستغلونهم، و المستعبدونهم و الجاعلونهم مطايا الى امجاد لهم،و هى ثروتهم فى الدنيا، و هى أوهامهم الطائشة الغاشمة، و هى عقلهم فى كل شهوة زائفة عن حقيقة الحكم،وحقيقة العدل، و حقيقة الأساس. و الثانية اتخاذك القرار النابع و من معاناتك الكبيرة، و الذى هو تعبير عن فهم حقيقة المجتمع الانسانى، و عن فهم تركيبته المادية - النفسية، و عن كيفية تقديم المعالجات الأساسية فى فك معضلات ترافقه دائما فى حلبات الصراع، و تؤدى به من معركة الى معركة يستفيد منها عقله فى عملية التمرس و التقويم و المرور بالخطأ الذى يتحول الى زاجر موصل الى صواب أو الى نوع من صواب.

بطولتان - اذا - تفرعت الثانية من الأولى، و أو فلنقل: تضافرتا مندمجتين فى بناء الشخصية المثالية التى هى أنت أيها الامام. فلندرسهما منفصلتين قبل أن نجمعهما فى عملية التكوين الرائعة التى منها بنيت ذاتك.

أليس من حقنا أن نسأل: لماذا تنازلت عن الحكم؟ و لكن، فليكن لنا مثل هذا التمهيد: أنت موعود بالحكم، أو بالتالى، أنت مدعو اليه

[صفحه ۱۳۲]

بواسطة أبیک علی الأقل - و منذ خمس و عشرین سنة، و صراع حاد قائم علی الأرض، لیحول دون وصول أی واحد من بنی‌طالب الی الحکم - انه صراع قبلی تاریخی منذ الأساس بین بنی هاشم، من طرف، و بنی أمیة من طرف آخر، ولکنه تمیز بهذا العنف، و بهذا الشکل العنید الذی لا یقبل بأیة مهادنة، بعد ظهور النبی من الطالبیین، و اکتسابهم مقاما یرجحهم شهرة و احتراما بین جمیع قبائل العرب و یبؤهم مرکزا سیاسیا قوی الزعامة، و بلیغ النفوذ!!! ان الوقوف - اذا - بوجه مثل هذه الزعامة الملتهبة بنور النبوة لضرورة لا یجوز ترکها الی الغد، و الا یستفحل أمرها و تتقهقر أمامها کل الزعامات. من هنا کان السباق الی اجتماع السقیفة تنفیذا مدروسا، و مهیأ و مسحوبا من ضلوع القبلیة التی ساند لها زعامة ابن‌الخطاب.

لقد أصبح الطالبیون فی أمیز کفة سیرجح بها مرکز السیادة، أو مرکز الخلافة بعد موت النبی. ان المرکز الأول - کما یبدو، و کما تشیر الملامح، ونیة النبی، و ارادته المرجحة کل کفة فی المیزان - هو من نصیب البیت و أهل البیت.

و البیت کله الآن، یختصره علی،و یمثله علی،و لا یستحق البروز فیه أحد مثل علی - اشارات بلیغة فی التوجیه تناثرت من النبی علی علی زوج فاطمة بنت الرسول، تبتدیء بها،و تنتهی الیها أمومة تنقل الارث و تحصره فی ولدیها الحسن و الحسین اللذین ضمهما جدهما الیه و حصر ارثه بهما و سماهما «امامین قاما أم قعدا» و سیدین من أسیاد الجنة، و مشمولین بطهارة ممیزة هی - فقط - مخصصة بأهل البیت.

تلک هی دلائل وجف لها و منها - بنوع عام - زعماء القبائل التقلیدیون، و بنوع خاص - لم یخف غرضه و لم یقل الذعر من حصوله و حدوثه - الأمویون. ان السفیانیین، بوسع الاشارة، و بلاغة التأکید هم الخائفون و المذعورون، و هم العازمون علی أی بذل، و حتی لا یکون الدین و الدنیا و فی ید الطالبیین فی آن معا. ستکون المعرکة، ما بین الطرفین، لازمة لاجبة، و هائجة کاسرة، لیس لها ذمة لمهادنة، فالنصر فی الساحة لبنی أمیة، لا یعنی مهادنة، بل قضاء مبرما علی عدو قدیم، حتی لا تقوم له أبدا قائمة.

[صفحه ۱۳۳]

هذا هو واقع القبلیة الذی عاد من وأده الی البروز، بعد أن اغمض عینیه صاحب الرسالة عن متابعة الرعایة، و متابعة التزکیز. لقد فوجیء علی بتصرف عمر بن الخطاب، و لم یتأخر کثیرا عن ادراک القصد، ولکنه لم یأخذ الأمور بکل ابعادها - رویدا رویدا راحت تتوضح لدیه الأخطار، لقد کان وصول الخلافة الی عثمان بن عفان نذیرا بحلول خطر محدق ببنی طالب، و کان استعداد الرجل تهدیدا مباشرا بجعل بنی أمیة أسیاد الساحة. و عداوة الأمویین لا ترحم طالبیا هاشمیا. ان علیا یعرف ذلک، و یعرف أن تصرف النبی بعفوه عنهم عند دخوله مکة منتصرا، کان انذاک محاولة فی جمع الکلمة، و التخفیف من نزف الجراح حتی تکون الأمة المجموعة سیدة متعالیة فوق کل الخصومات، و ناسیة أحزانها المتولدة من کل غباوة تلفلفها بها قبلیاتها الذمیمة. و لکن الرسالة - علی ما یبدو - لم تبلغ شأوها فی النجاح، ربما لأن موت النبی کان أسرع و أسبق من حدوث التأثیر و جعله أبلغ فی النفوس، و ربما لأنه کان یلزم بنی أمیة جیل آخر من التثقف و التمرس، حتی تمحی من نفوسهم نواباهم العتیقة التی تربو بالحقد، دون أن تدرک ما هو التسامح، و دون أن تعرف کیف یجب أن یکون تهذیب الدنیا بما یجعلها شریفة محبوبة لا عشیقة مجذوبة الی فراش من فجور.

کل الذی تحسب له الامام علی، و تخوف منه، جعله یقبل بتسلم الحکم، بعد سقوط عثمان تحت حوافر الثورة - لقد کان القبول بالحکم محاولة رکبها الامام و هو کاره لها - انها محاولة اصلاح الخط، و لکن بعد کثیر من فوات الأوان. و ما العمل؟ فان معاویة الذی جمع الشام، و خیرات الشام، و کل السیوف و الخناجر المدقوقة فی أرض الشام - انما هو الآن یوجهها الی صدره، وفیها القضاء علیه و علی کل بنی طالب. لقد أصبح کل ذلک حاضرا، لیس فقط فی باله،بل أیضا مجسما أمام عینیه - أما المؤلم الذی کان یضنیه و هو یخوض غمار حرب أهلیة - فهو شعوره بأنه - و لو انتصر - سیکون المهزوم الأکبر! ان المهزمین الذین یصلون - بهزیمتهم - الی

طرف الميدان، لا يحق لهم أن يتناولوا بيدهم قصبة السبق الذى هو - فقط للسباق الأول، للفارس الأصيل.

[صفحه ۱۳۴]

يا حظا بائسا ينال ابن أبى‌طالب! لقد فاتته الجولة الأولى فى الساحة التى كانت له ممتازة فى يومه البكر، فاذا هى لأبى‌بكر تقدمه اليها رئاسة السن، و هى رئاسة هرمة لناقة تسمى «الوصيلة» عند العرب فى قاموس عمر بن لحى، و كانت الجولة الثانية لعمرو بن الخطاب، يؤسس فيها للقبائل ألف طنب، و ألف خيمة بلا- ظل! و كانت الجولة الثالثة لا بن عفان - ذلك الذى ما همه أن يركب كرسى الخلافة الا ليتمكن من صنع نول ما حاك عليه الا قميصا يستر به صدر معاوية فى الشام.

أية هزيمة وصلت الآن لعلى الذى انسحب من الجزيرة ليكون له سند فى الكوفة والبصرة، لينطلق منهما الى مقابلة معاوية فى صفين على حدود الشام، ولكى يتلهى بمقاتلة جمل تعتليه عائشة فى هودج مشقوق تنفث من خلف سجفه حقدا، و لا تتقبل منه دخول نسمة من حب و سلام، ثم ليغرق بمعركة النهروان كأنه جاء ليطعم فيها كل ابليس من أبالسة الكون، مما هو مفتوت على موائد الشيطان!

بئست الهزيمة التى وصلت مجمعة اليه بعد خمس و عشرين سنة، وصلت اليه و هو فى طرف الميدان، يحصد ما زرع له ابن‌الخطاب فى حضن ابن‌عفان، و من حقد و من زيغ تحصن بها كلها معاوية بن أبى‌سفيان، فاذا الدنيا - بين يديه - حصن له بناه منذ ربع قرن: قصورا، و جيوشا، و أموالا، و دروعا، و سيوفا يهاجم بها صدور الطالبيين، و صدور كل المسلمين الذين هم فى المقلب الثانى خلف صفين.

لست أظن أنه كان مقدرا لابن أبى‌طالب أى نجاح بعد خس و عشرين سنة مقهورة و بعيدة عن محورها الأصيل، أن النجاح العسكرى - بحد ذاته - كان هزيمة بحق المسلمين المتناحرين بحروب أهلية ما استنزفت الا دماءهم، و ما أهدرت الا قواهم، و ما شحنت الا صدورهم بالحقد و الضغائن!! أية محاولة مقهورة و بائسة أصاب منها الامام على، و هو كما قلت، معرى فى طرف الميدان! اللهم، اذا اعددنا له النصر الصحيح، فلكونه قد وضع حجارة

[صفحه ۱۳۵]

الاساس فى توجيه الحكم النظيف العادل لبناء أية دولة فى أى عهد، بناء مثبتا على الحقيقة التى لا يقوم الا بها مجتمع الانسان. بعد انتصاركك العظيم هذا أيها الامام، فأية خسارة يمكن أن يوقعنا بها غدر ابن‌ملجم؟

- ۵ -

أليست كلها - هذه الأسباب - فى الكفة الضاغطة عليك أيها الامام لتتنازل عن الحكم! هكذا وجدت نفسك - بعد سقوط أبيك مضرجا بدمائه فوق الساحة التى امتصت كل عمره بالجهاد - وجها لوجه أمام المعركة التى يطلبك معاوية الى مقارعتها و جعلها حدا فاصلا بينك و بينه - أخذت من المبايعة التى أوصلتك الى الحكم، مهلة لك تمكنك من اتخاذ القرار.

منذ قبلت المبايعة، لم تأخذها مشروطة كما جاءتك من قيس بن سعد اننا نتذكر ذلك:

«- أبسط يدك أبايعك على كتاب الله و سنة رسوله، و قتال المحلين».

و قبلتها مكيفة بما تخبىء فى نيتك و ضميرك:

- «على كتاب الله و سنة نبيه، فانهما يأتيان على كل شرط».

أى أنك قبلت المبايعة بشرطيها الأساسيين، و لا لزوم للزيادة التى لا يقررها الا رأيك و اجتهادك. ان فى اسلوب الرد. و فى اللهجة

التی ورد فیها، مادة غزیرة یجب أن تقرأ. من هنا یثبت الظن أنک نویت أن تجعل الحکم مجازا شرعیا للوصول الی مفاوضات تخدم غرضا کبیرا مأخوذا فیه قرارک الحاسم، فأنت - کما یبدو - لم تنوأن تنزل الی مساجلات فی القتال، و لو کنت تظاهرت باعداد الجیش، و ترتیب القیادات فیه،و حفز الهمم. لقد کان کل ذلک من ضمن تدعیم موقفک حتی تتسنی لک اللمفاوضة المقصودة، و کانت للمفاوضة المقصودة هذه، کل الدلائل للوصول الی غرض السلم، لا الی تسعیر القتال، و لم یکن ثمن السلم - فی ذلک الحین و ذلک الوضع الدقیق الذی کنت فیه - أقل من تنازل عن الحکم، فی الوقت الذی ما کان النزول فیه الی الحرب - بالمقابل -

[صفحه ۱۳۶]

أقل من استدعاء نصف الأمة نزولا الی الساحات.

أردت السلم و لم ترد الحرب - لا استرضاء، وجبنا،وخورا، وخمولا، کما أراد أن یرشقک المتهمون - بل تحقیقا لمبدأ أنت وحدک توصلت الی ادراکه و رسمه فی مجال التحقیق و التطبیق. لقد کان من حقک أن تلم بالاوضاع من ضمن ما هو منوط بک الالمام به - فالامامة هی فرض علیک بالاحاطة و الاحتواء، و ان الاتزان و البعد فی النظر، هما من الاتصافات الثابتة للامامة التی هی الآن ترخی علیک ثقلا فی المسؤولیة الجسیمة تجاه أمة لملمها جدک العظیم الی تثبیت وجود أضحی مربوطا بالقیمة و الوزن.

فی هذه اللحظة بالذات - و المسؤولیة اجتمعت مربوطة فی عنقک - رأیت أنک مدعو بالحاح الی حقیقة الغوص، و حقیقة الفهم، و حقیقة اتخاذ القرار. لست أقول انک الآن فقط أدرکت، و لکنک الآن أصبحت مسؤولا لأول مرة - مسؤولیة مباشرة جعلت لک من الادراک کثافة لم تجن مثل قیمتها بعد - لقد فهمت الآن جدک الرسول فی کل مقاصده و مراميه - أدرکت لماذا أفنی العمر فی سبیل قضیة تساوی وجوده -أدرکت أن الأمة العظیمة هی کل قضیته، فصرف علیها کل الاهتمام و کل الجهد، و کل تعلیق المصیر، حتی یتمکن من أن یباهی بها جمیع أمم الأرض. لقد فتش لها من کل رکن یثبتها فی ساحة الحق - محضها بالقرآن العظیم حتی تعیش أبیة الی مجد و ابداع - عززها بالتوحید، بکل معانیه الفکریة - الروحیة المادیة علی السواء، حتی تکون منیعة بالروح لا تضیع عن سبل الحق، و شبعانة من حبک السواعد التی هی معاول الله فی استدرار الخیر من تلاحم التراب.

ما قلل جدک النبی من أیلاء الأمة العظیمة قیمتها الفاعلة، والتی هی تفاعل الانسان مع أرضه، و لقد عین هذه الأرض التی اکتشفها وجود هذا الانسان، و حصر تفاعله فیها، و تفاعله فیها أقدم من التاریخ، و أعمق من الزمان المکشوف، لهذا أشار ودل الی هذه الأمة العظیمة التی صاغ منها عظمته، ولذا بالضبط حضرها لأن تکون رکیزة انفتاح علی العالم بواسطة رسالة.

[صفحه ۱۳۷]

لها میزاتها الانسانیة العالمیة، فی حضور مثالی فیه کل الحق و العدل و المساواة. ستکون حبة القمح هی رغیفها من دون أن یکون لمحتال أن یرکب عتمات اللیل الی بیادرها - انها سنة الشرفاء و الأحرار فی الحیاة لیس لهم أن یجنوا الا مما یملکون - ان الجمع و الوحدة و التحریر، هی کلها من اجل هذه الأرض التی لا تفرقها الأقالیم الا لیرصها التنظیم، و العیش الواحد المشترک،الی مصیر واحد یتحقق من أجل العظمة المنشودة. فلتکن الأرض عدة أقالیم، الا ان انسانیة الاسلام هی الملقط العظیم الذی یلقطها بالحق، و هو وحده میزان الضبط و میزان العظمة

ذلک هو کتاب الله، و تلک هی سنة النبی، من أجل هذا الانسان حتی یکون عماد مجتمع لا یوصف بالعظمة الا بالعمل العظیم، و کان العمل العظیم فی مبادرة بنائیة، أول ما أبعدت عنها قبلیة الجزیرة الأم التی عاشت بها دهورا، و لم تحقق مجتمعا، بالمعنی

الصحیح، الا عندما أتاها اللمح التوحیدی، فردها الی زعامة واحدة، لها کتاب واحد وازع، سنة واحدة منظمة، فاذا کانت هذه هی مهمة الکتاب، و هذه هی غایة السنة، فأی معنی یکون لمجتمع یحید عنهما، وقد بنیاه، و لا یتلقط بهما، وقد جمعاه، وقد حدداه، وقد وحداه، و قد عززاه، و قد حرراه،و قد رسماه للعظمة التی یطمح الیها مجد الانسان، و فخر الانسان، و حقیقة وجود الانسان؟!

و فی هذه اللحظة بالذات، و قد أدرکت فیها تمام الادراک، أهمیة المجتمع الذی امتص کل اهتمام جدک العظیم - ادرکت أیضا جدیة اهتمامه البلیغ فی عملیة بناء الذین سیأخذون من بعده متابعة الجهد فی السهر علی اتمام عملیات بناء هذه الأمة حتی تبقی مستمرة فی الترقی و اثبات الذات، فهی أمة النبی، و لها التاریخ، و لها الیوم الحاضر، و لها الغد الأکبر، و لها الأساس فی العروبة الجامعة، و لها الأرض الکریمة السخاء و التی لا یقطع عنها المدد، و لها الوحدة الفاعلة، و سیکون لها نظام اداری یخصص ذاته للعمل الکبیر فی تولی جمیع شؤونها الحیاتیة.

[صفحه ۱۳۸]

لقد أدرکت أیها الامام لماذا خصص جدک ارثه الواسع فی أهل بیته؛ و لیس ارثه مالا و قصورا ورياشا: بل أمة و رسالة، لا لأنه بلا عقب، و لا لأنه متعصب بالتخصیص لأهل عشیرته... ان الذی یبنی الأمة کلها علی جهده، و لا یعتبر بلا عقب، و ان الذی وحد العشائر کلها، و حزمها بحبل واحد، لا یتعصب لشخص واحد یربطه سلک ببنی‌هاشم - انما هی العصبیة للأمة العظیمة فی الاعداد النفسی المتین لمن یثق به انه هو المختار المتاز لاتمام العمل الجبار، لوصلة المجتمع الجبار. من هنا کان الامام علی هو أبوک الموثوق به، و کنت أنت هو المتوسم بک فی قضیة تناول الارث الی القیمومة الفاعلة فی حقیقة وجدیة الارتباط.

فی هذه اللحظة بالذات، اشرقت علیک و نورت کل الفکر، و بعمق و نبل أدرکت:

- ان بناء الأمة العظیمة هو مطلب لجوج، لا محید عنه، یخلق الانسان العظیم الذی یعتز به وجود الانسان.

أولا- و آخرا - هو الانسان - یتلقط به المجتمع الانسانی، و بالتالی، کل أمة بمفردها، ضمن حدود لها فوق صفحة الأرض، تلبیة لکرم الحیاة، و صیانة لحقوقها الطبیعیة المقدسة، و فی التشبث بالوجود الذی هو کلی و مطلق فی الله العزیز المثال.

- ان النبی الکریم، نبی الأمة العربیة بانتسابه الیها و بانتسابها الیه، لم یقدم لها کتابا عربیا ناطق الحرف، الا- لیجعلها أمة مفتوحة الذراعین علی العالم کله، تحمل رسالة جمع،و توحید، وتحرر و نور، و هدایة، و هی کلها رسالة الاسلام، و هی کلها للأمة فی مرکز الاحترام بجلیل القدر و المنیع الجانب.

- ان المبادیء فی مجتمعات الانسان، هی التی تبقی - بعزة فاعلیتها و صلاحها - لا الأفراد الذین یقررونها أو یزیدون فی تطویرها، أو یسهرون علی تحقیقها و تطبیقها، و تنفیذها - ثم یغیبون.

علی هذا الأساس من الادراک المستنیر، رکزت ما انتهیت الی الاقتناع به،

و حصرت هذا الاقتناع بأن الأمة وحدها هی المقصودة بکل اهتمام، و ان السیاسة الحکیمة الفاعلة هی التی تکون لها فی التعهد الرشید الهادف، و أن المجتمع لا یحقق ذاته عن طریق حکم مبنی علی عصبیات قبلیة، کما هو شأنه الآن.

لا- یجوز اذا - و هذا هو الاقتناع - ان ینشق المجتمع الی جبهتین عریضتین متصارعتین، و هکذا فان الأمة الی تدمیر ذاتها، وتفتیت قدراتها،و هدرها، و تفکیک کیاناتها الی وحدات متناحرة ترجعها الی قبلیاتها التی ما ان اختفت،حتی عادت الی الظهور.

لقد حصل کل ذلک تحت نظرک طیلة النهار الذی ثبت فیه أبوک الامام وجوده، و لم یترک الأرض الی الآخرة التی ارتضته شهید الصراع، الا والغصة فی حلقه علی أنه لم یقدر أن یرد الشام و العراق الی الوصلة الکبیرة المنشودة، و بذلک بقیت الأمة منشقة تتعارک و تتناحر فی المیدان الذی اتتک منه المبایعة لمتابعة قتال المحلین.

أی حکم تسلمت، لا- یقوم الا- علی قتال المحلین! و قتال المحلین یشل الأمة و یفنیها، یشل وحدتها، ویشل عزمها علی الثبات فی الوجود.

بامکانک أیها الامام أن تجمع کل رصیدک عند القبائل، و تقاتل به المحلین - ان للقبائل دیدنا لم ینسوا بعد کیف یلبونه نزولا الی ساحات الغبار - و لکن التنادی هذا الی تسعیر القتال لن یخفف من غلواء معاویة، و معه عمرو بن العاص، والمغیرة بن شعبة،و زیاد بن أبیه الذی انضم الی أخیه معاویة فی عملیة الالتحاق... سیطول الصراع علی ذات النمط الذی ابتدیء به مع أبیک الامام - انه صراع مخطط للوصول الیه منذ أن ترک الأرض جدک الذی أوصاک بالأمة و العمل علی صیانتها و تخلیصها من الدمار! أی معنی للحکم یستمر بالصراع البائس الذی لا یجبنی الا الدمار! و أی معنی لحکم لم تأت أنت له،و لم تبن نفسک للتحصن به، و أی حکم یصلح و لیس له الا القبائل فی الدعائم!

[صفحه ۱۴۰]

لقد ثبت الآن أیها الامام - فی هذه اللحظة من التأمل الکبیر، أمام الواقع الکبیر أیضا - کل عزمک، و کل ارادتک، و أتخذت القرار.

القرار

أیها الامام، انها لیلة مررت بها حتی تباشیر الصباح - کنت مستلقیا فی فراشی لما أحسست کأنی أعانی وطأة حلم یشبه الکابوس، مع أنی کنت أشعر أنی أقلب کتابا بین یدی و هو یبحث ملیا فیک... ولکن کل شیء حولی راح الی تحیر و ابهام: فأنا لست فی فراشی، انما أنا - هنا و هناک - فی استحضارات و مشاهدات لیس فیها کثیر من التوازن فی الربط، أو تسلسل فی تنویع الأحداث. کنت أنت الذی تبدو دائما أمامی، مرة فی جبة طویلة بیضاء تجللک حتی الأخمصین و أخری فی شبه غلالة کانت تعریک حتی العظم - أما الناس فکانوا ینبتون نبتا أمامک، کأنک کنت تستدعیهم استدعاء فیطلون من کل زوایة، و من خلف ما یشبه الستائر. لقد کان کل استحضار - بمفرده - یلفنی بشدة یسمرنی فی مکانی، دون أن ادری، هل أنت ترانی و ستستدعینی لتطرح علی و مضة من عینیک، أم أنک ستترکنی متغلفا بحیرتی و سکونی، الی أن یأتی صباح یرشدنی الیک... الا أنی لبثت واقفا أراقب ما یحدث أمامی فی المکان.

رأیت شخصا یقترب منک و أنت تتنقل فی صحن الدار. کان عریض المنکبین و مفتول الساعدین. حاول أن ینبهک الیه بتوجیه الکلام:

- حمدا لله أیها السید، یبدو أن الجرح فی کتفک قد طاب. و التفت الیه بعد أن مررت کفک بسرعة علی عاتقک - لقد أخذته بعین عاطفة، بینما کنت تمد یمناک الی المصافحة.

الامام: انی أتمنی لو أفدیک اذا وقعت بشدة مثلما فعلت معی یا عبدالله بن حنظل الطائی. اتراه کان شجاعا مثل ابن‌ملجم؟ هذا المدعو: الجراح بن سنان -یهوی بمغوله علی

[صفحه ۱۴۱]

کتفی!! لقد وجدت نفسی مجبرا علی معاقبة ابن‌ملجم فقطعت عنقه، لأنه قتل بالسیف المسموم ابی... ولکنی لن أنتقم من ابن‌سنان اتعرف یا عبدالله لماذا؟

کنت أحضر اذنی لمعرفة الجواب من عبدالله الطائی، و لکنی فوجئت ببروز الجراح بن سنان - لقد تقدم سریعا من الزوایة و وقف

یقول:

الجراح: أنا الذی أسأل أیها السید لماذا:

الامام: لأن سیفک لم یکن مسموما یا ابن‌سنان، و بالتالی لأنی شعرت ببطولة فیک لا تریدنی اتنازل عن المطالبة بحقی الذی یتجنی علیه معاویة.

الجراح: و لماذا لا نقاتل معاویة و نسترد حقا منه؟ لماذا نسحب الجیش و نتراجع به من النخیلة الی ساباط، بدلا من أن نسوقه الی منبج حیث یعسکر عدونا معاویة؟

الامام: لقد وجهنا ثلاث فرق من جیشنا المخیم فی‌النخیلة الی منبج، و لم یرجع أحد من فرق الجیش الینا. فانسحبنا الی ساباط حتی نلملم جیشا أصبح ضعیفا و مهددا بهزیمة.

الجراح: ماذا تقول أیها السید؟!

الامام: سل قائد الجیش عبیدالله بن العباس. لقد زحف بعشرة آلاف و لم یعد بعد - وسل القائد الکندی: أربعة آلاف و لم یرجع أحد منهم بعد - و سل قائد بنی مرة: أربعة آلاف أیضا و لم یعد أحد منهم بعد.

الجراح: و کیف؟

الامام: سدده الجواب یا عبدالله بن حنظل.

ابن‌حنظل: لأن الکندی باع معاویة أربعة آلاف من قبیلته بنی کندة باربعمئة ألف درهم! و لأن الثانی باع من قبیلته بنی مرة

[صفحه ۱۴۲]

العدد نفسه و بالصفقة نفسها أیضا. أما عبیدالله بن العباس، فلقاء عشرة آلاف رجل تناول ألف ألف درهم.

قال ابن‌حنظل هذا القول و عصب عینیه بکفیه و انسحب، فلحق به ابن‌سنان و اختفیا خلف الستائر - بینما الامام قد ساق قدمیه المثقلتین بالتعب نحو الزاویة الشرقیة و المطلة من المکان الموجود الآن فی ساباط علی المدائن حیث یشهق أیوان کسری - و لکنه ما أزاح الستار حتی فوجیء بحبر الأمة عبدالله بن عباس یعاتب أخاه عبیدالله علی هذه الهفوة التی لا تغتفر فوقف الامام تجاهه یرمی علیه رمیا نظراته المخنوقة برمش عینیه، فتناوله ابن‌العباس بیدیه و هو یقول:

لا- تنظر الی هکذا - فأنا ما أقدمت علی ما فعلت الا بعد أن شعرت أنک تحضر رسلا الی معاویة لمفاوضته علی الصلح، عندئذ تصرفت.

الامام: لا یا ابن العم - لیس علیک أن تتصرف بالصلح قبل أن اتناوله أنا بما أمکن من التمهید و توفیر الشروط التی تحفظ لنا صیانة الرسالة فهی التی نستوحی منها سلامتنا و سلامة الأمة. لقد أخطأت یا ابن العم - فأنا المسؤول الأول کما تعلم، أنا وصیة جدی، و أنا ارثه فی تعیین الحق، و تعیین النهج، و تقبل الصدمات، و تحملها، و الافادة منها ما أمکن. أتکون أنت من عداد الذین تصدوا لارادة النبی فی تخلیص الأمة من قبلیاتها، و من کل فوضی تنتج عنها! أتکون أنت أیضا واحدا من الملاجمة الذین قتلوا أبی الامام؟! ألا تری أن کل واحد منهم کان ابن‌ملجم، قبل أن یولد ابن‌ملجم؟! من أبی‌بکر - الی عمر - الی عثمان - الی معاویة الذی هو رصید الجمیع!

ابن‌العباس: لا یا ابن العم - لا تظلمنی بهذا المقدار فأنا تصرفت بالنوع ذاته الذی تصرفت به أنت.

الامام: لم یکن من شیمک الا أن تتکلم بالحق. لست أدری لماذا

[صفحه ۱۴۳]

انقلبت الی غیر ذاتک؟ هل لک أن تتبعنی خمس خطوات لتأخذ التوضیح؟

یقول الامام ذلک و هو یشد به قلیلا الی زاویة مجاورة - یزیح ستارا عنها فتنکشف عن اثنین کأنها یتحاوران و الامام لیقول:

الامام: یا عمرو بن سلمة الهمدانی.

و یا محمد بن الأشعث الکندی.

هل أنتما اطلعتما عبیدالله بن العباس، قائد الجیش، علی المهمة التی انتدبتما الیها الی معاویة بن أبی‌سفیان؟

الهمدانی: انی احترمک یا سیدی قائد الجیش، و لکنی أمرت ان أکتم عن أی انسان ما أنا أحمله الی معاویة - فهل الامام یتهمنی بقطع السر؟

الکندی: و أنا کذلک یا سیدی، فهل أکون متهما؟

الامام: و لکنک یا ابن العم لم تلمح ما لمحت الا من معاویة بعد أن رأیت الرسولین عنده - أنه أخبرک بذلک حتی یدل بتبجحه علی، و حتی یبالغ فی تشوفه علیک، أما حصولک منه علی ألف ألف درهم فکان أعز لک أن تقبضها منی بعد أن أثبتها حقا من حقوقی فی مال الفیء، أصرفه علی المسلمین الذین هم الآن فی عهدتی.

ابن‌العباس: اتکون فعلا قد أبرمت الصلح مع معاویة؟

الامام: و لقد عرفت ذلک من معاویة بالتأکید، لأنه أرسل الی شروط الصلح مع رسولین غیر هذین الماثلین أمامک یا ابن العم.

انهما ینتظران فی القاعة هذه المسدول علیها الستار، حتی آخذ قراری، و أدخل علیهما، و أوقع علی جمیع البنود التی اقترحتها لقاء تنازلی عن الحکم،و ثمنا لبقاء الحکم فی

[صفحه ۱۴۴]

حوزته - سأوقع أمامک هذه البنود کلها، ثم أوجه الرسولین الی الشام أمامک، حتی یکون لی ما أردت لمصلحة هذه الأمة التی لا أتنازل مطلقا عن ایلائها حقها بالاهتمام.

یقول الامام ذلک و یترک الزاویة هذه الی الزوایة تلک، و یرفع عنها الستار فاذا الجمیع فی قاعة مصدرة بطاولة أمامها کرسی، و علیها دواة،و نسختان من اتفاقیة الصلح،و هنا و هناک مقاعد من خشب، یجلس علی مقعد منها رجل و أمة،هما عبدالله بن الحارث بن نوفل، و أمه و هی أخت معاویة بالذات، و علی مقعد آخر عبدالله الطائی و الجراح بن سنان، و علی مقعد مواز عمرو الهمدانی و محمد الکندی. و ما ان یدخل الامام و ابن‌العباس حتی یقف الجمیع، و الامام لیقول، مشیرا الی عبدالله و أمه:

الامام: هذان هما رسولای الی معاویة یا أبن العم. یجلس الامام الی المقعد، و یجلس قبالته ابن‌العباس وحده الی مقعد آخر موجود فی القاعة، یأخذ الامام النسختین، و بعد أن یطوی واحدة منهما و یضعها فی عبه، و قبل أن یوقع الثانیة التی یعرضها الآن بیده یقول:

الامام: طویت الی عبی النسخة التی أصبحت لی، و هی موقعة مسبقا بخاتم معاویة - أما هذه فهی التی أوقعها الآن تحت عینک یا ابن‌العباس - انی أوقع و اثبت قراری هذا و اختصره علیک بثلاثة شروط أساسیة:

أولا: جعل الحسن ولی عهد معاویة.

ثانیا: لا یتعرض لأحد من شیعة أبیه، و الناس کلهم آمنون.

ثالثا: و للحسن خراج دارابجرد من بلاد فارس.

لما ینتهی من قراءة هذه الشروط یلتفت صوب ابن‌العباس و یشیر معلقا علی طول الاتفاقیة الموجودة علی عدة صفحات:

[صفحه ۱۴۵]

الامام: أما هذا كله المكتوب على هذه الصفحات، فهو شرح لهذه البنود الثلاثة التى قرأتها عليك، حتى تكون معللة و مفصلة دون أن يتلاعب بها فيما بعد أى اجتهاد أو أى تأويل.

يخيم على القاعة صمت و تأمل، بينما كان الامام يتناول القلم من الدواة الموجودة أمامه على الطاولة، يغمسه فى حبر الدواة - ثم يوقع به على نسخة الاتفاقية، ثم يطويها و يناولها لعبدالله بن الحارث بن نوفل و هو يقول:

خذ يا عبدالله، أوصلها الى معاوية، بامكانك الآن أن تذهب.

بينما يقف عبدالله مع أمه ليرحلا، يتقدم الامام من المرأة و هو يقول:

أما أنت يا أم عبدالله، فانى انتقيتك خصيصا لتكونى فى الحاشية التى حققت الصلح انى انتقيتك حتى تقومى بمهمة من بلاغ: بلغى أخاك معاوية، انى خفت فعلا دهاءه، و استبداده و عناده، و كان لى أن أركب المركب الخشن، و استمر فى الصراع و النزال، ولكنى كرهت أن أعرض الأمة جمعاء لمصير أسود.

و كى لا يقسو الحكم على بنى قريش فينصب عليهم البلاء.

- بلغيه يا أم عبدالله أن حقن الدماء، دماء الأمة جمعاء - هو قصدى و مبتغاى.

- بلغيه أن القتال يشطر الأمة الآن الى جبهتين عريضتين، و ربما غدا الى جبهات.

- بلغيه أن الشام هى وصلة العراق،و أن العراق، هو درع الشام و صدرها الأوسع، و الحقيقة الصارخة: و أن الاسلام يفرض حمايتهما و يطلبنا الى وئام.

- بلغيه أنه لا يجوز لنا أبدا أن نفصل الشام عن العراق و لا أن نفصلهما عن الجزيرة الأم فى عالمنا الأوسع.

بلغيه أن الشام ثروة و لا يجوز أن نجمعها قصورا لنا وحدنا وقببا حمراء... و كذلك العراق ثروة للأمة موحدة مع الشام فحذار أن نجعل

[صفحه ۱۴۶]

الكوفة و البصرة بستانا فقط لنا لأننا من قريش. و أن مصر و النيل هما فى مدانا الوسيع، فلا نجعل مصر بقرة حلوبا لتكون طعمة لنا ارضاء لخاطر عمرو بن العاص و اضرابه.

- بلغيه أنها تكون مهزلة فى جريمة و جريمة فى مهزلة: ان نعتلى خشبة المسرح، و نكون نحن أبطال تمثيل المهزلة و المأساة فى آن معا.

- بلغيه أن الأجيال كلها ستطالبنا اذا جعلنا كرسى الحكم لنفوذنا و سيادتنا سببا لجمع المال و الجاه، و ركيزة نستبد بها و نظلم العباد.

- بلغيه أن الجزيرة الأم، ما وزعت ابناءها على كل بقعة من بقاع العروبة الا ليشاركوا فى عمارة الأرض، و عمارة الحضارات التى ينشئها الانسان الجميل، لا ليعيثوا فسادا فى الأرض و ينقلوا دائما معهم قبلياتهم القديمة المريضة، و كلها للتخريب و توقيف سبل الخير عن مجاريها - و كلها عار علينا فى عملية الحساب، تهزمنا فى التاريخ و تقاضينا، و تحكم علينا بالتخلف.

- بلغيه أنى اتنازل له عن كرسى حتى يجعله صالحا لحكم عادل يجمع الرعية فى أمة، لا أن يسقم الأمة الى رعايا تتناحر على جمع المغانم و الاستئثار بها.

- بلغیه أن نشر الثقافة هو الذی یجمع الأمة و یقوی فیها عناصر الخیر.

- بلغیه أنه یکون علی الخطباء الذین یعتلون المنابر لعظة الناس و تقویم الاخلاق، و تزیین النفوس بالصدق و العفة و النبل - عار علیهم و علینا. اذ تکون فاتحة القول لدیهم لعنة الامام علی الذی هو بحبوحة فی مقدساتنا، و نبراس و متراس فی صدارة اسلامنا.

- بلغیه یا أم عبدالله أن اللعنة هذه ستأخذها علینا الأجیال بوصمة عار، لیس یستحق شیئا منها جلال الاسلام و تبشیر الاسلام و المقاصد و الغایات فی حقیقة الاسلام.

- بلغیه أن الحسن یجب أن یصدقه أنه سیصمد نفسه حتی یحکم لا حتی یملک.

[صفحه ۱۴۷]

- اتقدرین یا أم عبدالله أن تنقلی الی معاویة تمنیاتی هذه حتی یتمکن من حکم هو لی فی الأساس، و انی ما تنازلت له عنه الا لأجنب الأمة وقوعا فی مهزلة و مأساة، أو بالتالی وقوعا فی فراغ!

لقد بقی الجمیع صامتین مطرقین... یأخذ عبدالله ساعد أمه و یذهب خارجا من القاعة - یتمشی الامام قلیلا - ثم یتوجه نحو عبدالله بن العباس

بالسؤال:

الامام: ما رأیک یا عبدالله؟

ابن‌العباس: هل هذا هو قرارک؟

الامام: ألا تری أنی هکذا قررت لأنی «خشیت أن یجتث المسلمون عن وجه الأرض»!

ابن‌سنان: ألا یمکننا أن نقاتل معاویة؟ و هل هکذا نصالحه؟

و وجه الامام کلامه للجمیع، بینما کانت سحابة من الحزن تلف عنقه:

الامام: «ما أردت بمصالحة معاویة الا أن ادفع عنکم القتل ان الأمر الذی اختلفت فیه مع معاویة، انما هو حق اترکه لاصلاح أمر الأمة و حقن دمائها».

یقول ذلک و یتمشی خارجا الی صحن الدار - یلحق به عبدالله بن العباس - یتوجه الامام نحو الجهة المطلة علی ایوان کسری - یزیح الستار - یأخذ ابن‌العباس بیده الی الواجهة و یقول:

الامام: هذا هو الایوان الذی بناه کسری علی أرض المدائن؛ منذ أکثر من عشر سنین، وجه الخلیفة عثمان جیشا لابعاد کسری عن الایوان - لقد ترک کسری - فعلا -هذا الایوان.

ابن‌العباس: و ما تقصد من القول.

الامام: لا أقصد بل أسأل: لو أن کسری لبی نداء الرسالة التی وجهها جدی الیه، و فهم حقیقة الاسلام - أکان له هکذا أن

[صفحه ۱۴۸]

یترک قسرا بهرجة من بهارج الدنیا جمعها الیه وحده من سواعد المستعبدین، بدلا من أن یردها عن طیبة خاطر للأمة التی هی أحق بها منه و أجدر؟!!

و بعد امعان و تکفیر و اعمال رویة، یلتفت نحو ابن‌العباس و یستطرد القول:

الامام: لقد بدت لی - بعد تفکیر طویل فیه مقارنة مع الواقع، واقع الجزیرة التی نحن من أبنائها، فکرة بنیت بها مبدأ جدیدا طبقته أولا علی نفسی، اتسمعه الآن منی؟

ابن‌العباس: اجل أیها الامام - لقد ترسخ الآن أیمانی بأنک تقدر أن تبنی مبدأ و تصوغ منه قرارا - فما هو مبدأک الجدید؟

الامام: رأیت أن تحسب جدی الرسول فی تخلیص هذه الأمة من قبلیاتها لم یستوف نصیبه علی الأرض، انما - بالعکس - عادت القبلیة للظهور باقبح نتائجها، اذ غاب هو عنا... لم یتصرف معاویة الا بوحی من القبلیة التی تفتش بها کل قبیلة عن نصیبها فی الزعامة، کل من الخلفاء: أبی‌بکر الصدیق، و ابن‌الخطاب، حتی انتهی الأمر المفجع الی ابن‌عفان الذی أوقعنا فی الهزیمة! أ لا تری؟

ابن‌العباس: صحیح - لقد عمل النبی المعجزة فی توحید الجزیرة، و توحید الأرض و تحریرها، وها هی دولة الاسلام لم تترک شبرا واحدا من أرض العروبة الا و مدت الیه قلبها و روحها و باعها.... الا القبلیة، الا هذه العصبیة الصغیرة الحقیرة، فلماذا لم یتمکن أحد من القضاء علیها قضاء مبرما؟

الامام: ان القبیلة هی روحیة القبائل یا عبدالله، و القبائل هم مادة

[صفحه ۱۴۹]

العرب و مادة الاسلام. قد یکون التشدید علی زجر القبلیة عملیة تذعر منها بنیة القبائل فی هیکلیتها الأساسیة - من هنا تتحرک دائما عصبیة الزعامات - تتحرک و لما یهذبها بعد مران فی تحمل الحق، وفی تحمل العدل فیما یفرض، و فی فرض المساواة فیما ترمی الیه فی حقیقة البناء النفسی - الروحی فی آن معا - انها کلها من مقومات بناء المجتمع فی توحید العصبیة له ککل، و لیس لکل زعیم فیه علی انفراد. ان تهذیبا من هذا النوع الجلیل، لا ینشئه، ولا یوسعه، ولا ینشره الا العقل.... لیت جدی قد طال عمره ثلاثین سنة فوق عمره الذی تعجل بتره - لکان المران قد أصبح أفعل، و أجدی، و أبلغ، و لکانت القبلیة قد أخذت لها اتجاها آخر هو الی جنی الخیر من خزانه العام المشترک، ولیس عن طریق کل زعیم بمفرده، لا یوصل للناس من الجنی العام أکثر من عشرة بالمئة، أما الباقی فهو له علی استئثار. انما تهذیب الجماعات البشریة هو فن و اخلاص، و هما من انتاج قلب کبیر، و عقل أکبر... الا تری یا عبدالله؟

ابن‌العباس: بدأت ادرک کیف یمکن المجتمع أن یحقق - کم أتمنی الآن لو أن البدایة بعد موت النبی - کانت بأبیک، رضوان الله علیه - لکنا الآن قد اختصرنا المسافات، ولکانت الیک الآن وصلت امامة تستمر - کما قلت - فی التحریر و التسییر. أراک فعلا لها یا الحسن.

الامام: انی لها الآن یا ابن‌العباس - لقد تجلت لی الآن الحقائق: ان بناء المجتمع لا یتم بعشر سنین - انه العمل الذی لا ینتهی، أما جدی - فانه لم یقدم الا حجارة الأساس، علینا - من هذه الحجارة - ان نبنی، حجرا حجرا یکون رص المداميک. أماالقبلیة فاننا لا نقدر أن نزحزح شیئا من أثقالها

[صفحه ۱۵۰]

الا بفرط رمالها - حبة حبة - من المداميک المشوهة التی نحن نعانی منها.

انه الواقع یا عبدالله - لهذا لم یکن لنا الدور فی الوصول الی الحکم الذی تترجاه لنا الآن - بعد أن ترجاه لنا جدی - لأن الواقع المریض الذی هو واقعنا، لم یرض بنا فی هذا الظرف الذی لم تنتظم بعد قرعات ثوانیه لقد تنکر لنا المجتمع القبلی، لأنه ظننا نتقدم علیه بعصبیة ضخمها علینا انتماؤنا الی بنی‌طالب، نقمها علینا بنوأمیة، و ان کنا جمیعا من بنی قریش. ربما نکون نحن المغالین بالافتخار

بطاللبیتنا التی انجبت فخر المسلمین، فلم تتحملها عصبیة الزعماء، فارتدوا الینا و طعنونا بها بما جعل الضربة ترتد الیهم و الینا بشکل ألیم!

ابن‌العباس: ولکن النبی منا أیها الامام، فهل کان الغیر بنا من الخاسرین؟

الامام: أنه منا بتمام الحقیقة یا ابن‌العم، و أنه أیضا بالحقیقة الواسعة، من کامل أرض الجزیرة، من تاریخها، من واقعها، من حراتها، و من واحاتها علی السواء.... ولکنه بالحقیقة الواسعة و العظیمة - لیس لنا وحدنا - بل أنه للرسالة التی هی - أبدا - للانسان: أظنها ستجمع الی صدرها الرحب عالم الانسان فی حضن الله العزیز الحکیم... هکذا علینا نحن الآن أن نستوعبه و أن نستوحیه فی متابعة العمل...

ابن‌العباس: و کیف؟

الامام: أن نقر بالواقع - أن نقدم ما یزیل عنا سوء الظن، أن

[صفحه ۱۵۱]

نقول: لا- فرق بین طالبی و اموی: وأیة قبیلة من قبائل العرب، أن نتحد لمصلحة الأمة، و أن نتنازل عن کل شیء فی سبیل مصلحة الأمة، و فی سبیل وحدتها و استقرارها، انی اتنازل عن الحکم الذی حجبه عن والدی وعنی واقع الأمة، فأنا لست له، اذا یحسب علی استئثارا کما یحسب علی کل ساع الیه لجلعه اداة کسب... أنا لست من هذا النوع من طالبی الحکم یا عبدالله - أنا اقدم الآن القدوة الحسنة - حتی یتأثر بها معاویة لجعل الحکم اداة جمع لا اداة تفرقة - حقنا للدماء أولا - و منعا للقبلیة من التمادی فی استفحال أمرها - و توحیدا للأمة و جعل کل أبوابها مفتوحة لا موصدة بحواجز، و فوارق،و حدود - حتی یفتح العراق علی الشام، و تنعم أرض الجزیرة الأم بحقها من الأمومة،یأتیها حبا و تکریما و وفاء و تقدیرا، من جمیع ابنائها المتمددین فوق الأرض منذ عشرات آلاف السنین - ألا تری ذلک صحیحا یا عبدالله؟

ابن‌العباس: ولکن معاویة لیس هکذا سیفعل!

الامام:

یکفی أنه سیرد جیشه الی الشام و یریحه من قتال لیس له جدوی - یکفی أن یجمع العراق الی الشام و یریحه من مضنیات القتال - یکفی أنه یریح أرض الجزیرة الأم من صراع یقف بها علی حد الانفجار - یکفی أن یحسب التنازل تخفیفا من قبلیة هی علی الأقل - بین الطالبیین - الهاشمیین والسفیانیین - و الأمویین -مرض عضال یطال کل القبائل...

ابن‌العباس: و هل تراه سیصلح للحکم الواسع و هو یؤسس ملکیة لا خلافة صحیحة للمسلمین؟

الامام: أنا لا أظن أن مبدأی فی جعل مصلحة الأمة فوق کل

[صفحه ۱۵۲]

مصلحة، هو الذی سیأخذ منه معاویة کل البنود التی سیبنی علیها دولة حکمه - ان مبدأی هذا لیس معاویة بالتخصیص - انه للأجیال الصاعدة. کل جیل یأخذ منه مادة سیستحق درجة من الجناح - ان الحکم الذی سیتوصل الی الفهم، هو الذی سیجمع الأمة الی بساط واحد من العمق الحضاری - و عندئذ فان المجتمع الصحیح هو الذی یستحق المجد المسحوب من خیرات الأرض، ومن الحضارة التی یولدها عقل الانسان الواعی، فی ظل من معرفة تکون قد محت التعصب الصغیر الحقیر للزعامات، وجعلته تعصبا کبیرا مجیدا

للمجتمع الذی هو کل المعرفة، و کل الحق، و کل الجمال.

ابن‌العباس: و الان أیها الامام؟

الامام: اترافقنی الی المدینة حیث نستقر و نؤسس ندوات للبحث و العلم و نشر الثقافة؟ علنا هکذا نستمر فی عملیات البناء، و یستمر لنا الحکم الذی فاتنا علی کرسی، و لا یفوتنا أبدا، و لو قصدنا بعملیة التنحیة و القهر، و التغییب!

ابن‌العباس: سأکون معک یا ابن‌العم، و بالرغم مما أوجس منه... و لکن معاویة لن یحقق بندا واحدا من بنودک الکبیرة فی الاصلاح - لن تنفصل عنه مقاصده، فهی مطویة فی نفسه - سیلاحقک الی المدینة سیلبث أبدا طابخ سم - یکفیه فی بطانته: مروان بن الحکم و بقیة الحثالة الأمویة و أخیرا هذا الذی فتش عنه والحقه بنسبه - زیاد بن سمیه -فهلا تحذر دائما معاویة!

هیا یا ابن‌العم - أنا أعرف معاویة، وأعرف تماما أنه هو بالذات قاتلی، و أعرف أنه هو السم الذی اشربه - و أعرف

[صفحه ۱۵۳]

الآن أنی جعلت منه ترياقی.

ابن‌العباس: أنت نهر الکوثر أیها الامام، فیا خوفی من أنک ستکون الکوثر المهدور!!!

الامام: طالما أن الکوثر هو الکوثر، فیکف یهدر - یا عبدالله - کوثر الجنة؟نحن قدمنا الحق یا ابن‌العباس، و هل یبنی مجتمع بغیر الحق؟ فلینتظرنا الیوم الکبیر - الی ذلک الیوم سنبقی نحیا - هیا بنا الآن یا عبدالله بن العباس...

و یشمل المکان صمت کأن علیه سجف الأبدیة.... رفعت رأسی لأری أین هما المتحدثان اللذان لم یترکا الا صدی بقی رهبة فی سقف المکان و علی جدرانه... و لکنی لم أجدهما،فتقدمت الی الستار المکشوف عن نافذة وسیعة فی الجدار، فرأیت ایوان کسری رابضا فی الأبعاد، ورأیت شبحین یسیران بخطوات مقهورة، ولکنها مستضیئة بنجوم اللیل - عرفت انهما یتجهان نحو یثرب،فأغمضت عینی التعبتین و أنا أقول: الا یمکننی أن اتبعهما الی یثرب؟

و لکنی وجدتنی - و تباشیر الصباح تسبق الشمس الی - افتح عینی علی الکتاب الذی ما زال بین یدی، و لکن أصابع کفی کانت تدغدغ الصفحة البیضاء من خاتمته، فأخذته ورحت استدرج - کراسا سریعا - صفحاته و أنا أسألة: أین وجدت فیک أیها السارد کل ما سمعت فی هذا اللیل من حدیث جلیل لم أقرأه مجموعا فیک؟ و لکن صمت وعدت الی نفسی أقول: و لکنی جمعته کله من بین دفتیک - تلقطت به معلقا بکل حرف من حروفک أیها الکتاب - من هنا و هناک و هنالک جمعته - مما قیل بالکلمة، و مما قیل بالاشارة، ومما خروج بالصدی - من الحقیقة جمعته، ومن الکذبة السوداء جمعته، ومن الکذبة البیضاء جمعته، و من المقصد الرهیب، و من الغایة المرهونة خلف الستائر المتدلیة علی النوافذ، لتحجب النور؟، و تبقی المکان فی عتمة السقف و الجدران.... و جمعته من لسان من هنا و لسان من هناک، یتحاوران و یتخبان خلف شفتین تقدمان

[صفحه ۱۵۴]

السم للهضم،فاذا الساحات کلها الغبار الذی تتنفس به عصبیات أبعدت الحقیقة عن نصابها

اجل أیها الامام - أنا ما قرأتک هکذا مجموعا فی کلمة، و لکنی ادرکت أنک أنت کل هذا بتصرفک علی الأرض الذی هو تصرف تعبیر عن نهج هو کل الصواب.... سألحق بم الی المدینة، علنی أسمع منک کلمة أخری ستقولها مفروطة من عطشک الذی تسقی به ظمأک - فأنت - من الکلمتین المشتقتین من مصدر واحد - جبلت للتأکید علی معاناة مات بها أبوک، وستموت بها - لتحیا أیها

العظيم، كما لا يزال يحيا بها أبوك العظيم الآخر.

[صفحه ۱۵۷]

الخاتمة

حروف أخيرة

أيه أيها ألامام

أجل - يا أبامحمد - لقد تمنيت أن الحق بك الى يثرب - لا لا ستزيد معرفة بك، بل لأبلغ من غرقى فى كنهك، لقد بدا لى أن رفيقك فى الطريق الممتد طويلا طويلا بين المدائن و يثرب، كان عبدالله بن العباس - ولكنه بدا لى أيضا أنه لم يصبح - كما اتصف به - حبر الأمة، الا بعد أن ارتوى منك و أنت تكشف له علما فى طوية النفس و حقيقة واقع المجتمعات - لكن... لماذا لا يبدو لى أيضا - فى حقيقة الشوق - أنى أنا بالذات، بعد أربعة عشر قرنا من مسافات الانفصال، كنت رفيقك فى الطريق الممدود فوق صفحات الرمال؟ يا للعظمة فى تركيز الخيال! كيف يجعل من حبة الرمل وصلة تجمع الصحراء من طرفيها، وكذلك قطرة الماء فى جمع المحيط الخاضع تحت خفقة المجذاف!

- ۲ -

لست أحب أن اتخيلك أنك العظيم، فأنت - بالحقيقة - كنت العظيم، لقد أنشأت صلحا مع معاوية، لا ليسلم معاوية متنعما بأرض الغوطة، أو لتسلم أنت مكفكفا فى أرض يثرب - بل لتسلم يثرب فى الشام، والشام فى يثرب - ولتسلم يثرب فى العراق و العراق فى يثرب... يا للأمة سالمة فى وحدتها كما هى سالمة بمثلها المجموعة اليها من غرسها بالحق.

[صفحه ۱۵۸]

- ۳ -

أيه أيها الضمير المشتاق أبدا الى الاقرار بالمعروف الناصع البياض - اتكون خطوات الامام قد نقشت نقشا على رمال الطريق - بين المدائن و يثرب؟ كأن الرمال بلاطة تحفظ النقش فلا يمحى و هى مسحوبة من مقالع زغروس المخيم على الخليج، وهى لا شك ممتدة، ومن تحت لجج المياه، الى تحت هذه الفدافد و الصحارى، حتى تكون أساسات بنيت عليها مساحات الجزيرة الأم، و بالأخص مدينة مكة، و مدينة يثرب... أتكون الخطوات هذه غير تسجيل لواقع مهزوم،لا تزال تئن منه الأمة العظيمة التى لم تصل بعد الى حضور ترتجى له العظمة!

- ۴ -

لقد وقعت الأمة فى ويل لما تحولت صفين الى اسفين قطع الفرات عن الفرات، و الشام عن العراق، والانسان عن الانسان! و لكانت وقعت بالويل العميم لو لم يبادر الحسن الى اتخاذ القرار - أيه أيها الجراح بن سنان ما كنت ادرى أية بطولة هى التى كانت تحدثك برفض القبول بالقرار - أم أنك عدت فقبلت بالقرار،بعد أن سمعت الشرح من الامام، يحمله أم عبدالله، حتى تبلغه أخاها معاوية فى الشام - ففهمت أن القرار هذا هو أساس ثقافة ستنجح بها الأمة، اذ تتغطى به كأساس.

- ۵ -

أصبح حبر الأمة عبدالله بن العباس يساهم معك فى يثرب فى الندوات التى قمت بها لنشر العلم و الثقافة، من هنا يشتد ايمانى بأن نشر الثقافة فى المجتمع هو الذى يخلصه من غفلاته، و يقدم له الوعى الذى كان غافلا عنه، و هو الذى يقدم له المعرفة التى تنبع و من عمق الواقع الانسانى - المجتمعى، و يدله الى الخير الذى هو له، و الذى هو مادة جمعه و توحيده، و أساس مناعته كمجتمع حى... ليست الثقافة المنشودة الا حصيلة اختبار الانسان من حقيقة

[صفحه ۱۵۹]

واقعه فى مجتمعه، حتى تكون له فى مجال التلبية.

-:-

لقد قالوا عنك أيها الامام: لو لم تكن مهزوما لما اتخذت القرار - و لقد اتخذته بالتمام لأنك كنت مخذولا...و لكنها الحقيقة بالتمام: لقد كنت مهزوما - لهو واقع الأمة الذى هزمك - و أنه واقع الأمة الراهن هو الذى خذلك... لقد خذل جدك العظيم قبلك فلم يطع فى احلامه و تمنياته - لقد خذل أبوك الغارق فى اصالة الوجدان، فافرزته القبلية الى الهزيمة! وللهزيمة هنا مدلول آخر، لم ينهجه لا أبوبكر، و لا حتى عمر - انها هى التى تطال الأمة كلها: باحلامها، و امانيها، و وحدتها، و كل تحقيقاتها البكر! و أية هزيمة نكراء تقع فيها الأمة، و هى تجمع حقدا عند قبائلها و تزرعه فى صدر كل زعيم لا يمكنه أن يحقق زعامته. الا بجمع كل قبيلة تقاوم قبيلة اخرى تسابقها على الزعامة! أن الذى حصل على الأرض هو الهزيمة بالذات، تلقاها الحسن، و ألف منها القرار، و ألف منها النصر، و ألف منها الأمثولة لأجيال: بأن الصلح الواعى هو وحده لجمع الأمة و ربطها بوحدتها الكبيرة التى منها وحدها تحصل العظمة.

- ۷ -

ما رايتك أيها الامام - ازاء معاوية - الا لتصفو. فهو الذى رماك فى المعاناة التى وصفوها بأنها أصل الهزيمة و الانخذال - حتى أخذت منها طاقة حولتها الى المجرى الآخر الذى هو تنظير حضارى فى التحام الأمة التحاما رائعا يقوم على نبذ الأحقاد، و تسليم العقل السليم زمام المجتمع القوى الراقى - كأنك ابتكرت النهج أيها الامام، فى مجتمع أضناه النهج القبلى العتيق،فذا أنت طريق جديد مخطوط فى قلب الصحراء، كأنه مزروع الجانبين ببواسق الشجر، و كأن قوافل تخطر عليه، و هى تئو باحمال و آمال هى كل الخير المبنى به مجتمع الانسان.

[صفحه ۱۶۰]

- ۸ -

لم يمت هانيبعل العظيم مهزوما، فهو لا يزال يحيا فى كل ما رسم من مخططات جعلته عبقريا فى فنون الحرب، دفاعا عن مجد قرطاجة - و لم يترك عيسى الأرض مهزوما، فهو يحيا فى كل حرف بالرحمة نطق، و بالحب و التسامح، لتكون الأرض كلها فى فلسطين عجينة مطهرة يأكل منها الانسان حتى لا يموت - و جدك العظيم - أيها الامام - لم يمت مهزوما فى يثرب، بل أنه لا يزال يحيا فى كل آية توحد الله فى توحيد الأمة، حتى تبقى عظيمة بين أمم الأرض - و لم يمت مهزوما أبوك على فوق أرض الكوفة، فهو الحى فى كل حرف بليغ نطق به، و هو يرسم فيه - بالفعل - قيمة الحق، و قيمة العفة، و قيمة الوجدان، و كلها أساس فى بناء مجتمعات الانسان - و لم تمت أنت مهزوما، يا أيها الذى ناولوك السم فى كوب - فمات الساقى ملفوفا بنيته السوداء، و حييت أنت بسم جعلت

منه – أبدا – ترياقك... يكفيك أنك قدمت للمجتمع المفسخ الذى هو لك، مبادىء حق ستجمعه الى ذاته العظيمة اذ يفتش عنك.

– ۹ –

أصحيح أيها الامام أن المرأة التى هى ضلع فى بيتك – زوجتك جعدة بنت الأشعث – هى التى مزجت لك السم فى كوب من اللبن، رحت تجرعه فى مرض ألم بك و رماك محموما فى الفراش؟! و هل هو صحيح أيضا أن طابخ السم معاوية؟ لماذا لا يكون صحيحا كل ذلك؟ ألا يكذب على الغير ذلك الذى يكذب على نفسه؟ أيكون معاوية قد حقق شرطا واحدا من الشروط التى قطعها لك، لقاء تنازلك له عن الحكم؟ أين هى – فى آخر المطاف – ولاية العهد؟ لقد كانت اليك فى حقيقة الاتفاق، و ها هى لابنه يزيد... فلماذا لا يكون له أن يختم العهد بالقضاء عليك قضاء مبرما، حتى لا يكون له – منك – أية بادرة من ازعاج!!! أما أنت أيها الامام، فكنت العارف منذ ذلك الوقت بأن معاوية لن يصدق، و لكنك – بالذات – كنت العازم على اتخاذ القرار، لا لتجترح اعجوبة تخليص معاوية من أثقال سفيانيته – فان ذلك لم يكن بمقدورك – بل لتقدم للأمة

[صفحه ۱۶۱]

مادة تنجيها من تخلفها، و تجعلها ماثلة أمامك فى القدوة التى تناولها دمك مهرا لها – مقدما و مؤخرا على السواء!!!

– ۱۰ –

لقد كانت لك الأمنية أن تنام نومتك الأخيرة قرب جدك حيث هو ثاو فى باحة المسجد – و لكن الوباء ذاته الذى رمى أباك فى الساحة بعيدا عن كرسى الحكم، هو الذى أخذ به والى المدينة الأموى سعيد بن العاص، و جردك، حتى من أمانيك فى جدك الرسول... لقد كانت لك استعاضة،فنمت فى حضن امك فاطمة فى البقيع، فكنت عزاء لها فى غربتها! أما ذلك الذى هو ثاو فى النجف الاشرف فانه رنا اليك و هو هازىء من صروف الدهر– أما اخوك الحسين، فانه بقى واقفا وحده قربك، لا ينحنى و لا يلين – لقد أخذته العاصفة الى حضنها،و لفته بما هو أعمق من العنفوان.

[صفحه ۱۶۳]

خاتمة

أيها الامام،

و اسأل نفسى فيك

ما هو الجلال؟

هو أنك قد أتيته رحبا –

انه كالخيال –

تستدرجك اللحظة فيه الى ألف مجال –

وكنت المجال...

فى تلك اللحظة الأولى كنت المجال –

و بعد أن اختطفت الى المدى،

أصبحت شوقا فى المجال -

فلتنظر اليک الأمة،

بعد رصيد طويل من السنين،

فأنت لها بساط الأساس.

يا للنهج الأساس!

و أنت لها جامع الحق،

و جامع النهى،

و جامع المفارق فوق الدروب،

و أنت جامع حبات العقد فى رصف النضيد،

و أنت الرائى الكبير:

تمشى الطريق بالهمس اللطيف -

تجمع الهمس و تصوغ منه ياحات الزمان -

كأن عناق الصلح بين اثنين،

عو عتبة البناء -

تمر من تحتها أفوج و أفواج -

أنهم الميامين ألفاهمون -

انهم سواعد الأمة السمحاء و العذراء...

يا لجاجة الشوق اليک.

تمر الأيام، و هى تذوب فى فراغ،

دون أن تعرف كيف تتلمس خطاک!

كأنها لا تزال تغرق فى حراتها المضنيات!

كأن الحقد هو الضرورة من حاجاتها!

تقتات به - ظنا - أنه هو العنفوان -

يا لأمة! ومبتغاها العظيم!

أليس هو الجمع فى طاقاتها؟

فأين هى - بعد طول فى مسافات الزمان -

لا تستجيب الى خطاک؟!

أيها البهى الذى نقشت الدرب بخطاک -

و قصدت رزم الأمة -

فمتى يكون لها مجد -

و هى تقفو خطاک!!!

والسلام

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َ یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آبادی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بنایة "القائمیّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹